مشروع القرن الثقافى





فى كل رواية متعة دائمة

55

الصيّادون

د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لابد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ...

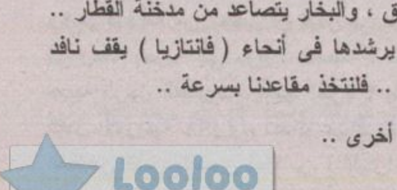
إن (عبير) كريمة النفس ، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا فى رحلتها. سوف نعبر معها

عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل ـ ونحن معها ـ العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..



1 ـ مغامرة جديدة

المزية التى تحققها المغامرات التاريخية هى أنها تجعلها أكثر علمًا .. يصعب أن تنسى أيامها مع المتنبى ؛ لأن هذه المغامرة صارت ذكريات حقيقية وليست مجرد سطور فى كتاب. صار المتنبى رجلاً حقيقيًا له طول وعرض وارتفاع وعواطف ، وهو فى هذا يختلف عن المتنبى الذى قرأت عنه مرارًا فى كتب الشعر العربى بالمدرسة وكانت تنسى كل شىء بعد ثلاث دقائق ..

لقد رأته وهو يقاتل .. ورأته وهو يُقتل .. ورأت الذباب يحوم حول جثته ويخرج من أنفه . كيف تنسى هذا كله ؟

وقد فطنت إلى أنها منذ فترة تختار الألعاب التاريخية ، وخطر لها أنها بحاجة إلى أن ترتاد عوالم الخيال قليلاً. ربما عوالم الأدب أو المسرح أو حتى القصص المصورة .. لقد قرأت إحدى قصص (تان تان) التى يرسمها الفنان البلجيكى (ريمى هيرجى) وخطر لها أنه من الجميل أن تبحر مع تان تان والقبطان هادوك فى رحلة بحرية إلى جزيرة غامضة ، كما فكرت فى أن تكون حبيبة الرجل العنكبوت ، لكنها لفترة لا بأس بها تشبعت برابطة العدل الأمريكية JSA ولم تعد ترغب فى مقابلة المزيد من هؤلاء المقنعين الذين يلبسون ثيابًا من (الليكرا) ملتصقة بأجسادهم ، ويطيرون أغلب الوقت حتى لو لم يملكوا قوة الطيران ..

كانت تفكر فى هذا كله عندما عادت من عالم المتنبى ، ولكن يبدو أن الجهاز لم يعطها فرصة التوقف .. لم تعد لعالم الواقع قط ..

(شريف) أخبرها بأن هذا يحدث أحيانًا .. هناك فى البرنامج خاصية أمن تمنع تكرار هذا أكثر من ثلاث مرات ، وإلا دخل البرنامج حلقة مفرغة وراح يكرر نفسه للأبد ، ومعنى هذا غيبوبة لا تفيقْ منها كما حدث عندما دخلت عوالم فانتازيا أول مرة وكانت مع شيرلوك هولمز ..

الحق أنها هشة جدًّا فى عالم الأحلام هذا ..

إنها تلعب بالضبط فى الحدود بين الموت والحياة .. بين الصحوة والغيبوبة .. لو حدث خطأ ما ....

* * *

كان المرشد معها لم يتركها منذ مات المتنبى .. إنهما غربى بغداد كما قلنا ..

قال لها وهو يشق طريقه وسط الرمال ويساعدها كى لا تتعثر :

ـ « هل قررت شيئًا ؟ »

قالت له وهى تحاول ألا تدوس هــذه القطعــة مــن الحديد المحترقة الملتوية أو تلك :

ـ « كنت أفكر فى مغامرات تان تان .. هل تذكره ؟.. الصحفى البلجيكى بخصلة شعره الطائرة ... ما رأيك ؟ »

مــط شــفته السفلى ، ثم أخرج الدليــل الصغير الذى يشرح جوانب فانتازيا وراح يرسم خطوطًا بالقلم ثم راح يفتش :

ـ « حــرف التــاء .. حــرف التــاء ...تختخ .. تونتو .. ترمينيتور .. تسلا .. تامر إبراهيم كاتب الرعب .. تان تان ؟.. للأسف ليس هنا .. لابد أن هناك خطأ ما .. »

قالت فى غيظ :

ـ « هل تمزح ؟.. كل العالم يعرف تان تان .. إنه رمز الثقافة الفرانكفونية هو والفيل (بابار) .. كان الرئيس الفرنسى ديستان يعترف أنه يحقد عليه لأنه يفوقه شهرة وشعبية .. »

ـ « ليس عندى .. على كل حال سوف أخطر الإدارة بهذا الخلل .. »

كان هذا أول خطأ من نوعه منذ عرفت فانتازيا .. وبما أن فانتازيا هى عقلها الباطن بشكل أو بآخر ، فإن عليها أن تقلق

بصدد العمليات المريبة التى تدور هناك .. ثمة اضطراب لكن ما سببه ومتى بدأ ؟

كان المرشد قد غادر منطقة الرمال الآن ، وكانا يمشيان وسط مروج خضراء من الطــراز المغسول البراق . هنـــاك عشرات الدرجات من اللون الأخضر . هناك أكثر من بقرة تمضغ العشب فى كسل .. هناك طاحونة وهناك أكواخ ذات سقف منحدر فوقها مداخن ... ثمة غابة قريبة من أشجار البلوط وسناجب ..

ما هذا المكان ؟.. هذا ريف أوروبى بلا شك .. لكن هل هو عالم ديزنى ؟.. هل هو عالم الأخوين جريم ؟.. صعب أن ترتاد هذا العالم من جديد ..

المرشد يمشى ببطء .. ببطء ...

مدت يدها تمسك بيده كالأطفال .. تفعل هذا أحيانًا عندما تفقد اتجاههــا أو لا تعــرف أين هى ، هنا انتزعت يدها وقد أصيبت بالرعب :

ـ « أنت ساخن جدًا !! »

استدار لها وابتلع ريقه :

ـ « بالفعل أنا كذلك .. »

هناك شيء خطأ .. إن وجهه محمر كالطماطم .. لاحظت كذلك أن غدة عملاقة انتفخت عند منبت عنقه .. متى حدث هذا ؟

سعل للحظة ثم أخرج منديله وبصق فيه .. لا يجب أن تنظر كى تدرك أن البلغم الذى لوث المنديل أزرق .. بلغم أزرق ؟.. لم تسمع بهذا من قبل .

ثم إنه ركع على ركبتيه وراح يجفف عنقه من العرق الغزير ، وفك ربطة عنقه .. وقال لها :

ــ « أعتقد أننى أموت .. »

هذا جنون !.. المرشد هو فانتازيا والمرشد لن يموت إلا بموتها هي : عبير .. لأنه ليس له وجود مادى حقيقى .. لا يملك أجهزة حيوية ولا فسيولوجيا .. إنه مجرد رمز يمشى على قدمين ..

قالت فى حيرة :

ــ « ما تقوله غير منطقى .. »

ــ « لا يعنينى إن كان غير منطقى أم لا .. المهم أنه ساخن ويسبب الصداع وجفاف الحلق ومغصًا شديدًا .. إننى أريد أن .. أن ... أفرغ معدتى .... »

تراجعت للخلف فى ذعر. هذه المرة الأمر يدعو للتوجس .. لو مات المرشد فكيف تعـرف أين هى ؟.. كيف تدخل مغامرة جديدة ، والأهم من ذلك كيف تخرج منها ؟

لما انتهى من طقوس إفراغ معدته ارتمى على العشب ينظر للسماء ويئن ..

لكم بدا هشًا !.. لقد اعتادت أن يكون سمجًا ثقيل الظل مفرط الثقة بالنفس .. الآن هو يبدو فى أسوأ حال ، لكنها شعرت أنها تميل له بهذه الصورة .. كيف يمرض المرشد ؟..

بدلته السوداء الأنيقة مكسرة مبعثرة اتسخت بالعشب والوحل .. ويبدو أن قلمه الجاف اللعين قد ضاع فى مكان ما .

لقد تم كل هذا بسرعة جدًا .. فجأة تحول إلى شبه جثة .. تكور على جانبه وتوسد ذراعه وأغمض عينيه. كلما كلمته أغمض عينيه وهز رأسه .

كانت هناك طفلة صغيرة جميلة تقترب .. طفلة شقراء ذات ثوب هفهاف كأنها من شخصيات القصص بدورها. اقتربت منهما فى فضول وألقت نظرة ..

فجأة سمعتها عبير تصرخ .. نظرت لها فى رعب فرأت أنها محمرة الوجه ، وبدأت تفرغ معدتها .. ذلك الانتفاخ اللعين يظهر فى جذور عنقها .. ثم بدأت تسعل بذلك البلغم الأزرق الكريه .

هتفت وقد فهمت :

ـ « العدوى سريعة جدًا !.. لقد انتقلت لها منك ..! »

ـ « هذا واضح .. »

ـ « وأنا مهددة كذلك .. »

قال دون أن يفتح عينه :

ـ « لا أعتقد ذلك .. يبدو أن هذه هى مغامرة اليوم .. هناك وباء غامض يهدد حياتى وحياة كثيرين .. عليك أن تحلى هذه المعضلة .. يجب أن تنجحى لأننى أمثل تذكرة عودتك من هذا العالم ! ، وبالطبع لن تصابى بالعدوى كى تتمكنى من الاستمرار.. »

بدا لها الكلام منطقيًا ..

نظرت إلى أكواخ القرية البعيدة ، وقالت :

ـ « سوف أذهب هناك طلبًا للعون .. لكن ماذا أفعل بك ؟ »

مد يده فجذب الطفلة الصغيرة المريضة إليـــه ، فأراح رأسها على صدره ، وقال لعبير :

ـ « سوف أغفو تحت ظل هذه الشجرة إلى أن تجدى حلاً .. »

ثم أضاف محذرًا بصوت مبحوح :

ـ « يجب أن تفعلى .. وإلا فلن تفـــارقى هـــذا العالم أبدًا .. لو كنت أكثر حكمة لأدركت أن هذه أخطر مغامرة مرت بك فى فانتازيا !.. لو أننى هلكت فهى نهايتك .. ودعينى أؤكد لك مما أشعر به أن هذا الاحتمال وارد جدًا !! »

ثم أغمض عينيه فأصابها الذعر ..

تركته وراحت تركض صوب القرية ....



2 ـ صانع الساعات والقيصر ..

ـ « داس إست فوندربار .. »

* * *

كان ذلك البيت الريفى الصغير جميل الشكل ينتظرها ... من بعيد ترى قطيع أبقار حسناء يشبه الذى تراه على علب السمن فى بيتها ، وهناك طواحين دوارة فى الأفق ... لحظة .. هذه هولندا إذن ... لا شك فى هذا ..

المدخل مفتوح وهناك أطفال يلعبون ، وثمة فتاة بارعة الجمال تعنى بحوض فيه أزهار .. الفتاة تمسك بشىء فى يدها وتفحصه ثم يتهلل وجهها ، وتركض إلى داخل البيت صائحة بالهولندية :

ـ « بابا !.. وجدت يعسوبًا ! »

يا سلام !.. ما هذا المزاج الرائق ؟.. هنا يحدثون كل هذه الضوضاء من أجل يعسوب ؟

أضف لهذا أن هذه القرية هولندية ، فما الذى يمكن أن يوجد فى قرية كهذه سوى السمن واللبن المجفف ؟

لسبب لا تدريه وجدت أنها تدخل البيت الجميل الصغير وراء الفتاة ، وهناك جوار النافذة حيث كان يتسرب نور الشمس المنعش كان يجلس عجوز كث الشارب حاد النظرات يحدق فى شىء ما .. ينظر فى عدسة أكثر مجهر بدائى رأته فى حياتها. كان هناك مجهر فى مختبر العلوم فى مدرستها يقوم الطالب بتجميعه بنفسه من عدستين ، وقد كان يشبه هذا بالضبط ..

ـ « رائع !.. رائع ! »

تناول الرجل اليعسوب فى حماسة وثبته على لوح زجاجى ، ثم راح يضبط عدساته وهو يئن ويزوم بلا سبب ، بينما وقفت الفتاة الحسناء تنتظر رأيه :

ـ « رائع !... أرى سيقانه وأوردة أجنحته بوضوح تام .. »

كانت عبير تذكر شيئًا من هذا لكن ليس بالتفصيل ، وقد دنت من الفتاة الحسناء وسألتها فى كياسة عن هذا العجوز ، فقالت فى فخر :

ـ « هذا أبى ! »

ـ « يا سلام !.. معلومات جديدة تمامًا .. أعنى ما اسمه ؟ »

ـ « إنه أنتون ليفانهوك Leeuwenhoek »

لم تستطع عبير تذكر الاسم فظلت واقفة تراقب ما يدور هنا .. إن الرجل شبه مجنون .. أو هو مصاب بوسواس قهرى يجعله يمسك بأى شىء ليضعه تحت العدسة ..

يمسك بالنحل والنمل والذباب ويراقبه تحت العدسة ثم يرسم كل ما يراه بيد ثابتة ..

قالت (عبير) فى حماسة :

ـ « لحظة .. ألا يعنى هذا أنك مخترع المجهر ؟ »

نظر لها فى ضيق خلق .. إنه من هؤلاء العجائز المتشككين سيئى الطباع كما هو واضح .. قال لها :

ـ « لا يعنينى أن أكون .. كــل القرية تسخر منى ، لهذا لا أريدهم وهم لا يريدوننى .. فقط فليتركونى أراقب الأشياء الصغيرة تحت هذه العدسة .. »

انتحت عبير بالابنة جانبًا وسألتها همسًا :

ـ « إذن هم لا يصدقونه .. ما هى مهنته الأصلية ؟ »

ـ « أبى صانع ساعات .. لكنه بلغ الكمال فى صقل الزجاج وصنع العدسات .. ولهذا رأى تحت المجهر عالمًا خفيًا لم يره أحد من قبل .. »

هنا اقتحم البيت سيدان إنجليزيان متأنقان ونزعا قبعتيهما فى احترام .

ـ « سيدى .. لقد سمعت الجمعية الملكية البريطانية عن اكتشافاتك وطلبت منا أن نأتى لندعوك لعرض ما توصلت له هناك .. »

قال فى اشمئزاز دون أن يرفع عينه عن العدسة :

ـ « لا أبالى بهذا السخف .. فقط اتركونى وشأنى .. »

قال أحد السيدين فى تبجيل وهو ينحنى احترامًا :

ـ « لقد عرف العلماء هناك أنك وجدت أشياء غريبة .. الدم البشرى يتكون من كرات .. قطرة المطر مليئة بكائنات سابحة . عفن الخبز يشبه الأشجار الصغيرة .. إن هذا مذهل .. »

ـ « أعرف ذلك ... »

فكر أحد السيدين طويلاً ثم قال بطريقته المنمقة الأنيقة :

ـ « لا أعرف كيف نقنعك .. لكننا بالفعل بحاجة إلى أن يرى العالم هذه الأعجوبة .. سوف يخلد التاريخ اسم (ليفان هوك) باعتباره أول رجل يخترع المجهر ، ويتمكن بعينه الحادة من رؤية ما لم نره .. الرجل الذى أخبرنا أن العالم من حولنا يعج بكائنات دقيقة لا نراها .. »

كل هذا جميل .. لكن (عبير) لم تفهم أهمية هذا المشهد بالنسبة لإنقاذ المرشد. لو كانت فانتازيا تريد البدء من البداية فقد اختارت بداية متقدمة جدًّا جدًّا ..

ليكن .. ليفانهوك هو مكتشف وجود كائنات دقيقة .. يكفى هذا .. فلتغادر هذا الجزء الهولندى وتبحث عمن يستطيع أن يساعدها ..

* * *

من جديد هى لم تفارق جو الريف ..

لكن كل شىء هنا يعزز اعتقادها بأنها فى قرية ألمانية فى القرن التـــاسع عشر .. بالواقع اسـم القرية هو (فولشتاين) . كان هناك ذلك المدخل الضيق الذى يقود إلى بيت صغير ، وهناك أصص أزهار على الجانبين يبدو أنها تحوى أزهار الأقحوان. هناك سنجاب يشتمها بلا توقف .. وهناك حصان ريفى جدًّا من الطراز الذى يحيـــط بقوائمه شعر كثيف كأنه يمشى على أربع مكانس .. يبدو أنه حصان جر .. جو ساحر فعلاً يوحى بقصة أطفال ، لكنها تعرف جيدًا أنها ليست كذلك ..

هناك لافتة كتب عليها بخط غير محترف :

عيـــــادة

هذا حظ حسن .. هناك طبيب هنا. طبيبٌ ريفى جدًّا يبدو أنه من الطراز الذى ينال أجره بالبيض أو الدجاج. لكنه بالتأكيد يستطيع مساعدتها ..

لم يكن المشهد مطمئنًا عندما دخلت .. هناك مقاعد عتيقة جلست عليها مجموعة من الفلاحين . أم تضع ابنها على ركبتها وتبكى .. الابن ليس على ما يرام فعلاً ... يصدر صوت اختناق لا شك فيه ووجهه أزرق تمامًا .. يفتح فمه مجاهدًا من أجل الهواء . هناك فلاح عجوز يسعل بلا توقف ويبصق على الأرض دمًا .. هناك امرأة متهالكة على مقعدين وهى تتحسس بطنها ..

الأم الدامعة تنظر لعبير بعينين حمراوين ، ثم تحاول أن تساعد طفلها على التنفس. هنا تظهر امرأة رشيقة هادئة يبدو أنها ممرضة ، فتسألها الأم فى لهفة :

ـــ « ألن ندخل ؟.. لا يوجد مرضى بالداخل .. »

تقول الممرضة الهادئة بلهجة من قال هذا ألف مرة :

ـــ « حالاً .. »

ثم تنظر لعبير فى فضول ، فتبتلع عبير ريقها وتقول :

ـ « أريد رأى الطبيب .. ليس المريض معى .. »

ـ « الهر كوخ Koch مشغول جدًا .. أخشى أن جدول مواعيده مكتمل .. »

ارتجفت عبير انفعالاً .. إذن هى فى عيادة الهر (كوخ) .. (روبرت كوخ) العظيم .. القيصر ... إن هذا مبشر حقًا ...

لكن لماذا يهمل مرضاه بهذا الشكل ؟.. فهمت من الكلام أنهم ينتظرون الدخول منذ ساعات. من العجيب أن الطفل لم يمت بعد هذا الانتظار ..

والأدهى أن الممرضة أشارت لعبير كى تلحق بها .. يبدو أنها غيرت رأيها ..

كيف ؟.. كادت عبير تحتج ، فهى تؤمن بالعدل وليس من العدل أن تدخل قبل هؤلاء جميعًا ، لكن الممرضة وقد رأت ترددها قالت :

ـ « ليس معك مريض .. هذا يجعلك لن تستغرقى وقتًا .. »

هكذا اقتادتها إلى غرفة بهـا أثاث رخيص وإضاءة واهنة . فقط هناك نافذة مفتوحة تلقى حزمة من الضوء وسرير كشف وكمية هائلة مـن الكتب ... هناك مكتب صغير جـوار النافذة

تتسرب له حزمة الضوء التى تم حساب قطرها بدقة بالستائر. وهناك مجموعة عيون مقلوعة !

نعم .. لا يوجد خطأ مطبعى .. هناك عيون مقلوعة على المكتب .. بعضها كامل وبعضها شطر إلى نصفين ، وإن كان حجمها يؤكد أنها ليست عيونًا بشرية .. هناك كذلك ثمرات بطاطس مقطعة إلى نصفين ..

خلف هذا كله هناك مجهر عتيق بدائى يشبه لعب الأطفال ، وقد تم ضبط حزمة الضوء لتسقط على مرآته العاكسة ، وخلف المجهر ذلك الوجه الذى حفظته جيدًا من كتب العلوم. الصلعة واللحية والمونوكل على العين ... روبرت كوخ شخصيًا ...

قال دون أن ينظر لها :

ـ « هـلا جلست لحظـة .. إننى أوشـك على رؤية هذه العصويات .. »

مدت يدها تستند إلى المكتب ، فكأنها شدت زناد قنبلة .. انفجر يصرخ فى جنون بتلك الطريقة الألمانية النازية إياها :

ـ « يا لك من بلهاء !!.. لا تلمسى شيئًا !.. المكتب ملوث بداء الجمرة الخبيثة !! »

أصابها الهلع فتراجعت للخلف ، هنا مد يده ــ دون أن يرفع عينــه عــن العدسة ــ وناولها زجاجة صغيرة سوداء قوية الرائحة ، وقال :

ــ « هاك بعض حمض الكاربوليك .. لستر البريطانى يقول إن له نتائج ممتازة فى التطهير .. اغسلى يديك .. »

اتجهت لمغطس صغير على حامل ، وصبت بعض السائل فى يدها .. آى ى !.. إنه يحرق بالمعنى الحرفى للكلمة !.. يحرق العينين قبل جلد اليد ... وما لم تعرفه عبير هو أن لستر البريطانى كان فى هذا الوقت يغرق غرفة العمليات بهذا السائل ويسكبه على الجروح ، ويرسل بخارًا منه فى الغرفة أثناء الجراحة . كانت النتائج باهرة بعــد ما كانت لفظتا (جراحة) و(موت) مترادفتين ، لأن كل الجروح كانت تتعفن بلا استثناء .. لم يكن أحد قد سمع عن كلمات بكتريا أو تعقيم أو تطهير .. هكذا قرر لستر أن هناك أشياء صغيرة تؤدى لتعفن الجروح ، وهذه الأشياء يجب القضاء عليها بحمض الكربوليك قبل ممارسة الجراحة. لكن النتيجــة المؤكــدة هى أن كــل الجراحين كانوا مصابين بالتهاب رهيب فى العين وقد اسودت أيديهم من تأثير هذه المادة الكاوية .

هكذا طهرت عبير يديها .. هى لا تعرف معنى (الجمرة الخبيثة) لكن الاسم مخيف بما يكفى ..

عادت تجلس أمام الرجــل المهيب .. قــال لها وهو يضبط العدسة :

ــ « هذا المجهر أهدته لى زوجتى .. وقد غير حياتى بالكامل .. بصراحة لم يعد لدى مزاج رائق للعيادة ولا المرضى .. وعبر هذه العدسة وجدت تلك العصويات فى جثث الماشية التى ماتت بداء الجمرة .. زرعتها فى الفئران فوجدتها قد ملأت جسد الفأر .. هنا خطر لى أن أزرعها فى وسط مناسب .. »

قالت (عبير) فى كياسة :

ــ « هناك تلك الأطباق التى يستخدمونها فى المختبرات .. إنها .. »

هنا صاح فى عصبية :

ــ « لا أعرف هذه الأمور ..!.. لم تخترع بعد !.. لاحظى أننى الأول وأننى أتحرك فى الظلام ، كما إننى مجرد طبيب أرياف لا يعرف شيئًا عن أساليب البحث العلمي. هكذا قررت أن أزرع هذه العصويات فى عيون الثيران .. »

هذا يفسر كل هذه العيون المقلوعة . إنه يشترى عيون الثيران من السلخانة ، لأن السائل فيها غالبًا سيعمل كالجلد الحى ..

ــ « ورأيت !.. رأيت كل شىء .. رأيت العصويات تنمو أمام عينى صانعة خيوطًا !.. لا شك فى هذا .. لقد تحولت عين الثور إلى بكرة خيط معقودة متشابكة .. إنها حية !! »

قالها بحماسة تذكرك بحماسة د. فرانكنشتاين عنــدما دبت الحياة فى ذلك المخلوق .

هنا دخلت الممرضة على أطراف أصابعها وهمست :

ــ « فراو (فلهلم) توشك على الجنون .. تقول إنها تنتظر منذ العاشرة صباحًا .. »

نظر لها فى دهشة ثم ضرب المنضدة بيده وصرخ :

ــ « لتنتظر أكثر .. ما الذى يعرفه الأطباء عن المرض ؟.. لا شىء .. معلوماتى هى معلوماتها ، بينما ما أقوم به يقودنا فعلاً لفهم كيف يمرض الناس .. »

ثم قال لعبير :

ــ « زرعت هذه العصويات من عين ثور لعين ثور لعين ثور .. ومن عين ثور لعين ثور .. هكذا صار لدى عصويات هى حفيدة حفيدة حفيدة أول عينة التى أخذتها من الماشية .. الآن هل تستطيع هذه العصويات أن تنقل العدوى كما فعل أجدادها ؟..

جربت هذا وحقنت بها الفأر .. فماذا كانت النتيجة ؟.. لقد أصيبت الفئران بالجمرة الخبيثة. بالضبط كما كانت فى الماشية .. »

هتفت عبير فى حماسة :

ــ « إذن أنت أثبتت أن هذه العصويات تنقل الجمرة .. لا مجال للشك فى هذا .. ألم تنشر هذه الأبحاث عندئذ ؟ »

ــ « مستحيل !.. ليس بهذه السرعة .. لابد من أن أكرر التجربة مرارًا وأضع نفسى فى موقف خصومى ، وأفترض أننى جاهل أخرق .. »

هنا دخلت الممرضة :

ــ « فراولاين (شتايجر) فى ولادة .. يريدونك أن تذهب لمزرعتها .. »

ــ « فورًا . فورًا .. »

وبالطبع لم يحرك ساكنًا .. كان يحكى لعبير عن مغامرته مع داء الجمرة .

لقد توصل إلى الكثير جدًا من الأبحاث المهمة وأجرى كل تجربة مرارًا ، وأخيرًا حمل معه المجهر وحقائبه وقفصًا به فئران وركب القطار ــ على طريقة فلاحينا الذين يحملون معهم البطة والفطير ــ واتجه إلى العاصمة ليخبر العلماء بما توصل له .

لم يكن الطبيب الريفى الخجول ليجيد الكلام .. وجد نفسه أمام هؤلاء السادة المرعبين الذين هم أقرب لجنرالات الجيش منهم للأطباء ، والسوالف العملاقة والثياب الفاخرة والجُمّات وجميع أنواع اللحى .. كان موقفًا رهيبًا ، لكنه لم يأت ليتكلم بل ليفعل . ولمدة ثلاثة أيام راح ـ كأنه حاو بارع - يريهم كيف فتت طحال الماشية المريضة وكيف حقن المستحلب فى الفئران ، وكيف حصل على العصويات وزرعها فى عيون الثيران .. و .. و....

كان كل شىء مقنعًا .. واندفع البروفسور المرعب كونهايم إلى قاعة الدرس ليصرخ فى طلبته :

ـ « داس إست فوندربار .. داس إست آين .... »

معذرة .. لا داعى للألمانية هنا .. قال لهم إن هذا شىء مذهل .. وطلب منهم أن يجتمعوا حول الطبيب الريفى الذى اكتشف من تلقاء نفسه طريقة بحث علمى لا يتسرب منها الماء. اكتشف الجرثومة المسببة لمرض الجمرة ..

وكان هذا هو الدرس الأول فى علم الميكروبات : كل حيوان يموت بالجمرة يجب أن تحرق جثته ، أو تدفن فى حفرة عميقة تحت الأرض حيث تكون الأرض باردة لا تسمح بعودة الحياة للجراثيم ..

ـ « داس إست فوندربار.. »

من حسن حظـه أنه وقع مع علمـاء حقيقيين .. علماء لم يسرقوا عمله أو يسخروا منـه ، بل إنهـم نشروا أبحـاثه على مسئوليتهم ، ونبهوا كل غاف إلى أن اليـوم هـو ميـلاد الطب الحقيقى ..

كان (كوخ) غارقًا فى الذكريات وقـد غلبـه الحنين ، حتى ليوشك على تقبيل جراثيم الجمـرة بشـفتيه ، لولا أن صاحت (عبير) :

ـ « لا أريد أن أضيع وقتك أكثر من هذا .. هناك مرض جديد أرغب فى أن آخذ رأيك فيه .. »

التمعت عيناه فى شغف متوحش :

ـ « مرض !!!.. أين ؟ »



3 ـ أرجوك يا دوكتيور ..

راح الهر (كوخ) يصغى لما تقول فى اهتمام ، وهى تصف الأعراض التى أصابت المرشد والطفلة . قال لها :

ـ « بالتأكيد هذا مرض معد ينقله ميكروب ما .. يجب أن نجد الميكروب وأن يحقق لنا فرضية كوخ .. »

كان هذا هو الوقت الذى ولدت فيه فرضية كوخ الشهيرة : لكى تتهم ميكروبًا بأنه يسبب مرضًا ما يجب :

1 ـ أن تجده فى كل مريض مصاب بالمرض .

2 ـ أن تستطيع أن تفصله وأن تزرعه صافيًا ..

3 ـ أن يسبب المرض لو حقنت به شخصًا سليمًا ..

4 ـ أن تعزل الميكروب من المريض الجديد ، وتجده شبيهًا تمامًا بالميكروب الأول ..

دقة غير عادية تقترب من الوسواس ، وإن كان الطب الحديث قد وجد أن بعض الفيروسات لا يحقق هذه الشروط كاملة ، ولكننا نتكلم عن القرن التاسع عشر هنا .. لو أن كوخ سمع عن فيروس الإيدز أو البريونات لجن بالتأكيد ...

قال لها (كوخ) وهو يمسك بمبضعه فى شوق :

ـ « هاتى لى جثة المريض لأستخرج الطحال وأفحصه .. »

ـ « لم يمت بعد للأسف .. »

بدت عليه خيبة الأمل وغمغم :

ـ « يا للخسارة !.. إذن أريد بعض إفرازاته .. تقولين إنه يقىء قيئًا أزرق ؟ »

ـ « نعم ... »

ـ « جميل !.. جميل ! »

وناولها ثلاث أنابيب اختبار مغلقة بعناية ، ومعها أداة للمسح ..

ـ « احصلى على عينات من القىء والبول والبلغم .. لا أحب (العك) وعدم الدقة كأن تخلطى العينات ، أو تلوثى كل أنبوب بأصابعك .. أريد عيناته ولا شىء سواها ! »

راحت تفكر مهمومة فى الطريقة التى ستحصل بها على هذه العينات القذرة ، وإن لم تستطع أن تجادل الرجل كثيرًا .. إن شخصيته كاسحة خاصة تلك النظرة الألمانية الباردة من وراء المونوكل .

* * *

راحت تمشى فى المرج حاملة سلة صغيرة ، شاعرة بأنها ذات الرداء الأحمر .. فقط ليست ذاهبة لجمع التوت ولكنها ذاهبة لجمع عينات الوباء ..

الذئب ليس هنا .. إنه فى كل مكان .. قد يكون فى الهواء أو فى العشب أو فى لدغة تلك الحشرة . كان الفلاحون الألمان يعانون انتشار وباء الجمرة الخبيثة الذى يفتك بماشيتهم وبهم كذلك .. كانوا يأتون بقطيع فى أتم صحة ليرعى فى حقل معين .. بعد أيام يموت القطيع كله ، وهكذا قالوا إن أرضهم ملعونة .

هى الآن تمشى فى أرض قد تكون ملعونة ..

لكن أين المرشد والطفلة ؟... ليسا فى المكان الذى تركته ...

هل يكون التجأ لكوخ من تلك الأكواخ ؟.. أم لعله توارى وراء شجرة ..؟..

صبى فلاح يقود عربة يجرها ثور رآها وهى تفتش فشد الفرملة .. أعنى شد اللجام وقال لها :

ـ « هل تبحثين عن الرجل المريض والطفلة الأكثر مرضًا ؟ »

هتفت فى لهفة :

ـ « نعم .. »

ـ « إنهما فى الكنيسة .. لقد وجدهما القس وأخذهما هناك .. يبدو أنه تسرع بهذا القرار لأن اثنين من القساوسة يحتضران الآن .. »

ـ « والكنيسة .. هل هى بعيدة ؟ »

ـ « بعيدة .. لابد من الركوب معى ... »

ثم فكر حينًا وهو ينظر للقرية التى تتراءى فى الأفق .. قرية أخرى غير التى كانت فيها .. وقال :

ـ « كنت ذاهبًا لهذه القرية أطلب عونًا .. القس طلب منى هذا .. لم لا تذهبين أنت ؟ »

الجديد فى الأمر أنها تكتشف للمرة الأولى أن الصبى يتكلم الفرنسية لا الألمانية .. هناك تغير معين فى جو الرواية بلا شك .. يبدو أن عليها زيارة القرية الأخرى ..

فكرت قليلاً وبدأت تجد الفكرة معقولة :

ـ « ليكن .. أنت ستعود للقس وتطلب منه أن يعطيك بعض العينات فى هذه الأنابيب .. سأشرح لك كيف .. ثم تعود بها للطبيب .. الهر (كوخ) .. هل تعرفه ؟.. جميل .. جميل .. »

تم الاتفاق سريعًا .. هكذا سوف تصل العينات إلى (كوخ) ليجرى تجاربه ، بينما تجرب هى مكانًا آخر فى هذه المغامرة .. عندما تنتهى تعود لـ (كوخ) ..

وبعد قليل كانت تهرع نحو القرية الجديدة لتعرف ما يدور هنالك ..

منذ البداية فطنت إلى أن كروم العنب كثيرة هنا جدًا .. العناقيد تتدلى فى كل مكان .. يبدو أن المهنة البشرية هنا هى جمع العنب ، وحبات العنب ذاتها ضخمة بنفسجية اللون .. هناك من يهرس العنب بقدميه ــ وهو منظر غير محبب ــ وهناك غلايات عملاقة ومعاصر .. فلاحات فى كل مكان ..

تسمع العبارات الفرنسية فى كل مكان ..

بدأت تستنتج أن النشاط الرئيس لهذه القرية هو صنع النبيذ .. تقطير الخمور .. ومن الواضح أنها قرية فرنسية ..

هنا رأته ..

كان يمشى وسط مجموعة من الرِّجال الذين يبدو من ثيابهم أنهم فلاحون ، وكان متأنقًا له لحية نصف شقراء نصف شائبة جميلة المنظر ، وفى يده عصا يستخدمها للكلام أكثر منها للمشى .. وكان ذا شخصية لامعة براقة فإذا تكلم صمت الجميع ، كما كان من الطراز المغناطيسى الذى يتحمس فيتحمس من حوله ، ويغضب فيتوتر من حوله ..

كان يقول لهم :

ــ « هــذه هى القــواعد .. إذا أردتم أن تنقذوا صناعة النبيذ أو صناعة الجبن فعليكم أن تقتدوا بتعليماتى حرفيًا .. »

قال أحد الفلاحين فى أدب بالفرنسية :

ــ « دوكتيور باستير .. نحن .. »

قاطعه الرجل فى عصبية :

ــ « أنا لست طبيبًا .. أنا كيميائى .. كيميائى !! »

إذن هذا هو .. لوى باستير Pasteur شخصيًا .. عالم العلماء ومكتشف لقــاح مرض الكلب ــ بفتح الــلام ــ وعشرات من الأمراض الأخرى .. الذى صار اللبن مبسترًا من أجله ..

نظــر لهــا بعينيه الثاقبتين ، وأدرك على الفــور أنها غريبة فسألها :

ــ « هل تريدين شيئًا ؟ »

ــ « استشارة يا دوكتيور .. »

عاد يردد فى عصبية :

ــ « أنا كيميائى ولست طبيبًا ... تعالى معى .. »

هكذا دخل معهــا إلى بيت ريفى جميل .. بالتأكيد أكثر أناقة وجمالاً من الوكر القذر الذى يعيش فيه كوخ . الشمس تغمر كل شىء وهناك مزهرية جميلة بها أزهار على منضدة مغطاة بشرشف أبيض ناصع. هناك كأسان من سائل أحمر لابد أنه نبيذ وهناك صحف فرنسية ورواية لدوما ..

جلس وصب لنفسه بعض النبيذ وتذوقَ رشفة منه ، ثم قال فى استمتاع :

ــ « ممتاز !... لقد حللت لمقطرى الخمور المشكلة التى كانت تحيل نبيذهم خلاً .. »

كانت تعرف شيئًا كهذا ، لكنها بالطبع لم تعتبره عملاً عبقريًا أو معجزة ما ، فما جدوى الخمر أصلاً فى العالم ؟.. هذا لا يكفى مبررًا لما ناله باستير من شهرة ساحقة ...

قيمة هذا الاكتشاف هو أنه التجربة الأولى التى علمت باستير والعالم أن هناك كائنات دقيقة جدًا .. كائنات حية تتكاثر وتنقسم وتفسد ما تعيش عليه ..

كانت له كذلك مغامرة ممتازة مع الجبن الفرنسى الذى تتلفه تلك الكائنات ، ومغامرة أخرى مثيرة مع وباء ديدان القز ، لكن الوقت ليس وقتها طبعًا حتى لا نغرقك فى التفاصيل ..

كان باستير يجيد الدعاية لنفسه وكان يتكلم كثيرًا جدًا ، حتى أن الفرنسيين اعتبروه يعرف كل شىء . بل إن بعضهم اعتبره يملك سر الحياة ذاته .

كان من الطراز المولع بالجدل وفى أسلوبه شىء من التعالى ، لهذا لم يكف عن خلق أعداء علميين فى كل مكان .. كانت طريقته فى الكلام توحى دومًا بـ (أنتم أغبياء ولن تفهموا ما أقول) ، كان مستفزًا أحيانًا لدرجة أن جراحًا كبيرًا هو (جوران) تحداه للمبارزة .. لكن باستير كان أذكى من أن يموت بهذه الطريقة ..

ــ « والآن ما هى المشكلة يا آنسة ؟ »

بدأت تحكى له قصة المرشد الذى أصيب بالمرض خلال دقائق ، وكيف سقط أرضًا ونقل العدوى لطفلة .. بل نقلها لكل من تعامل معه. لاحظت فعلاً أنه لا يهتم بعلم الأمراض البتة ، ولم يحاول أن يعلق على شىء منها .. حتى أنه كان يحسب الحمى عرضًا يختلف عن ارتفاع الحرارة .. لا عّجب فهو ليس طبيبًا .. قالها مرارًا فى شىء من الفخر ..

قالت له :

ــ « إن الهر (كوخ) يحاول أن يعرف سر هذا الوباء و... »

هنا ضرب المنضدة بقبضته وصرخ :

ـ « الألمان !... أنا أكره الألمان ..!.. كوخ هذا مجرد طبيب ريفى لا يمكن أن يطمح إلى مكانة فرنسا .. فرنسا التى تقود الفنون والعلوم .. فيف لا فرانس !! »

تذكرت على الفور موقفها مع (يونج) و(فرويد) وكيف كان أحدهما لا يطيق الآخر .. الحقيقة أن باستير كان من أشد كارهى الألمان فى العالم إخلاصًا .. الويل لبروسيا .. فلتسقط !

هكذا قررت أن تبتلع لسانها ولا تذكر حرفًا عن (كوخ) ..

وكان من أغرب أبحاث باستير (الوطنية) محاولته اليائسة لصنع بيرة فرنسية تتفـوق على البيـرة الألمانية إن البيرة الفرنسية ردينة جدًا لكنه جرب المستحيل ، وهنا اكتشف أن عليه أن يتذوق البيرة ليعرف مدى جودتها .. مستحيل .. إنه لا يطيق طعمها ولا رائحتها .. هكذا قرر أن يترك هذا النصر الوطنى ، وبدأ يفكر فى مقاومة البكتريا فى البشر ..

هنا وصله خطاب من الجراح البريطانى العظيم (ليستر) يخبره أنه قرأ أبحاثه جيدًا ، وبذل كل جهد ممكن لمقاومة تلوث الجروح بتلك الكائنات الصغيرة ... كانت النتيجة رائعة ...

لقد بدأ باستير حمى الميكروبات فى أوروبا كلها وصارت هى الموضة ..

قالت له (عبير) :

ـ « أرجوك أن تساعدنى يا دوكتيور .. »

لم يلحظ لحسن الحظ أنها نادته بالدكتور. نظر لها فى شغف وراح يفرك يديه :

ـ « أريد عينات .. الكثير منها ولسوف أبدأ حالاً ... »



4 ـ البحث عن وغد ..

كان (كوخ) فى ذلك الوقت قد انتقل إلى برلين ، بعد ما تلقى عرضًا سخيًا ليعمل ملحقا فى مكتب الصحة الإمبراطورى . وكانت حمى الميكروبات قد غزت أوروبا كلها .. الصحف تزف فى كل يوم نبأ اكتشاف بكتريا جديدة ، مع قدر لا بأس به من الخبال ..

اكتشاف البكتريا المسببة للسرطان !

اكتشاف نوع بكتريا يسبب كل الأمراض فى التاريخ !

الدرن لا تسببه بكتريا واحدة وإنما مائة نوع من البكتريا تهاجمُ فى وقت واحد !

كان الجنـــون العلمى لا يختلف عـــن الجنـــون الذى نراه فى صحفنا اليوم ، لكنِ القيصر كوخ ظل محتفظًا بثباته وبروده وصرامته العلمية :

ــ « كل نوع من البكتريا لا يسبب إلا مرضًا بعينه .. فقط يجب أن تحصل على سلالات نقية تزرعها بعيدة عن أى تلوث خارجى .. »

من أجلِ هذا الغرض ابتكر صيادو الميكروبات أجهزة شديدة التعقيد ، لدرجة أنهم كانوا يفرغون من صنع الجهاز فينسون ما الغرض منه ..

أما كوخ فقد وجد البطاطس !.. البطاطس سطح صلب يسمح بأن يُزرع عليه نوع واحـــد فقط من البكتريا. استدعى مساعديه (لوفلر Loeffler) و(جافكى Gaffky) ليخبرهما بما توصل إليه .. وبالدقة الألمانية التى تثير الغيظ جلسوا يتأكدون من نظريته .. فى الواقع طلب منهما (كوخ) أن يبرهنا أنه أحمق واهم. (باستير) لم يخلق لهذا النوع من الصبر المضنى والدقة الشنيعة ..

يقولون إن كوخ كان يتعامل مع اكتشافاته المذهلة باعتبارها اكتشافات خصم له ، لديه ألف اعتراض عليه .. كان قاسيًا باردًا يتعامل مع العلم كأى كتاب رياضيات ، وفى طريقته لمسة غير إنسانية تشعرك بالرعب .. إن قيصر الطب لم يكن يرحم الجهلاء والمتسرعين ..

لاحظى المدعو (لوفلر) يا (عبير) !.. لا تنسى ملامحه !.. إنه الرجل الذى سينقذ البشرية من وباء الدفتيريا فيما بعد. لاحظى (جافكى) فهو من سينقذ العالم من التيفود. كل واحد من هؤلاء سخره الله كى ينقذ العالم من كابوس حقيقى ..

جلست (عبير) فى أدب تنظر إلى البطاطس المتناثرة فى كل مكان ثم سألت :

ـ « هل من أثر يا هر كوخ ؟.. العينات التى أرسلتها لك .. »

نظر لها للحظة ثم قال :

ـ « لا .. لم أجد فيها أية بكتريا .. جربت أن أستزرع منها شيئًا باستعمال كـل المزارع الممكنة بلا جدوى .. ربما كان المرض لا تسببه بكتريا .. »

كان الأمر منطقيًا بالنسبة لها .. بالطبع المرض تسببه بكتريا أو فيروس وإلا لما دارت المغامرة هنا .

قالت فى ثقة :

ـ « أؤكد لك أن المرض تسببه بكتريا .. »

ـ « إذن هى لم تظهر بعد .. هل تعرفين قصتى مع مرض الدرن ؟ ... لقد فشلت تمامًا وفشل الجميع فى العثور على البكتريا المسببة له .. تعالى معى لترى ما نقوم به .. »

* * *

قال (كوخ) وهو يدخل المشرحة :

ـ « كنا على يقين من أن الدرن تسببه بكتريا .. قام (كونايم) العالم العظيم بزرع قطع من رئة من ماتوا بالدرن فى عين

الأرنب. بهذه الطريقة أمكنه أن يشاهد الدرنات المميتة تتكاثر وتزدهر داخل العين ، كأنه يشاهدها من نافذة .. »

تراجعت (عبير) رعبًا وهى ترى الجسد الراقد على الرخام. جسد رجل ضخم فى الثلاثين من عمره ، يبدو أنه قوى جدًا ... بل كان قويًا جدًا ...

قال (كوخ) وهو يصلح من وضع عويناته ليرى جيدًا ، ثم يخرج مبضعًا من كيس صغير :

ـ « هذا العامل كان فى خير حال منذ ثلاثة أسابيع .. الآن هو ميت بداء الدرن .. سوف نرى .. سوف نرى .. »

ومن دون قفاز ـ لأنه لم يكن اخترع بعد - شق صدر العامل أمام عبير المذعورة .. هنا رأت الرئة .. لم تعد رئة بل هى شىء مخيف .. لهذا سُمى المرض الدرن بسبب الدرنات التى مـلأت السـطح الوردى .. الدرنات الكريهـة التى تحوى مادة شبيهة بالجبن ..

ـ « قربى منى المصباح .. »

دنت منه وهى تكتم تنفسها ..وحاولت ألا تنظر .. لو نظرت لأصابتها العدوى ...

رأت (كوخ) بيد ثابتة ينزع بعض هذه الدرنات بطرف المبضع ثم يضعها فى أوعية صغيرة. ثم أمرها أن تتبعه ..

فى المختبر الخاص به راقبته وهو يهشم هذه الدرنات بالمبضع ، ثم يخرج خنزير غينيًا صغيرًا من القفص ـ وهو كائن أقرب إلى الفأر الكبير ـ فيجرح ذيله ليدس فيه هذه الأنسجة المهشمة ، ويعيده للقفص ..

لما انتهى غسل يديه بثنائى كلوريد الزئبق .. يديه اللتين اسود لونهما فصارتا بلون جلد الحقيبة المدبوغ ، وأشعل غليونه فى استمتاع وقال :

ـ « الآن ننتظر ! »

كانت فى أتعس حال تشعر بأنها صارت مرضًا يمشى على قدمين. تريد أن تغوص فى زجاجة حمض الكربوليك بكل جسدها.

قضى كوخ الوقت يجرب أن يصبغ تلك الأنسجة بصبغات مختلفة لعلها تظهر له البكتريا الغامضة. وفى ذات يوم كان ينظر تحت المجهر عندما صاح فى لهفة :

ـ « هناك شىء !! »

ودنت (عبير) تنظر عبر العدسة معه لتفاجأ بمجموعة من العصويات الرقيقة الزرقاء وسط أنسجة الرئة .. كأنها سجائر متراصة فى علبة.

ـ « أترانا وجدنا الوغد ؟ »

وهرع يصبغ أنسجة عديدة من جسد العامل المسكين ويفحصها .. فى كل مرة يجد ذات العصويات ..

هنا صرخت (عبير) فى جزع وهى تشير إلى الأقفاص التى كانت فيها خنازير غينيا ..

كانت الحيوانات البائسة تجلس متكورة ساكنة تنظر فى يأس إلى قطع الجزر الملقاة فى الأقفاص ، ثم تنقلب وتموت ..

كان المشهد مروعًا لكنه بالنسبة لكوخ كان أجمل مشهد فى العالم ..

على الفور شرع يشرّح خنازير غينيا البائسة ..

ـ « بالفعل !.. تلك العقد الصغيرة تملأ الأجساد من الداخل !.. لقد نقلت الداء لخنازير غينيا فمرضت بالضبط مثل العامل !.. هاتى الصبغة الزرقاء ! »

وراح يصبغ الأنسجة ويفحصها تحت المجهر . وفى كل مرة يجد تلك العصويات الجميلة البشعة ....

ـ « إنها هى !! !! »

لكن (كوخ) ليس من الطراز الذى يكتفى بهذا. لقد راح يجوب كل مشارح ألمانيا يجمع الأدران من جثث الذين ماتوا بالدرن ، ويفحصها .. كانت عادته كما قلنا هى أن يفصل جزءًا من شخصيته يجعله خصمًا عنيدًا قوى الحجة ، وهذا الخصم غير مقتنع وعليه أن يبذل المستحيل لإقناعه ..

قالت له (عبير) :

ـ « ألن تنشر ما توصلت إليه ؟ »

نفث دخان الغليون فى وجهها وهتف :

ـ « أنشر ؟.. هل تحسبيننى عجولاً مولعًا بالدعاية مثل (باستير) ؟.. لا .. »

كان يمسك بفأر نقل له داء الدرن .. هنا حاول الفأر التملص وعضه عضة قوية فى يده .. صرخ كوخ وأعاد الفأر للقفص ثم غمر يده فى ثنائى كلوريد الزئبق وقال :

ـ « آه .!. عملية صيد الميكروبات هذه مرهقة للأعصاب حقًا ! »

قالت له (عبير) :

ـ « أنت قد برهنت على ما تريد .. انتهى الأمر ! »

اتجه للوح الكتابة الذى كتب عليه فرضية كوخ ، وقال وهو يشير بأنامله المسودة :

ـ « ناين .. ناين .. هذا قد يقنع أحمق مثل ذلك الفرنسى لكن ليس أنا .. لقد حققنا الشرط الأول .. الشرط الثانى هو أن نزرع هذه العصويات نقية !.. بعد هذا نحقن فأرًا سليمًا بناتج المزرعة فيصاب بالمرض .. وبعد هذا نجد نفس العصويات داخل أحشاء الفأر بعد موته ! »

تنهدت فى تعب وقالت :

ـ « ليس الوقت مناسبًا لذلك . إن مشكلتى الخاصة خطيرة وقد أضعنا الكثير من الوقت .. »

ـ « بحثى هنا قد يفيد بحثى هناك .. فأنا أبحث عن داء صديقك فى الوقت ذاته .. »

هكذا راحت فى تعاسة تراقب محاولاته لزرع هذه العصويات فى المزارع التى ابتكرها .. البطاطس .. الحساء المجمد .. كل أنواع الحساء ... لا شىء ..

ـ « هذه البكتريا اللعينة بحاجة إلى طعام يشبه ما تحصل عليه فى الجسد الحى .. »

وهكذا قام بإعداد حساء من دم الحيوانات .. وزرع عليه هذه الكائنات ، ثم وضع الأنابيب فى الفرن لتكون فى درجة حرارة الجسم البشرى ..

لكنه ظل ينتظر ...

وينتظر ..

أدرك أنه فشل من جديد ، فقد مر أسبوعان على زرع البكتريا ولم تنم بعد ، وهو قد اعتاد أن تنمو أية بكتريا خلال يومين ..

نام تعسًا وقد عزم على التخلص من الأنابيب صباحًا .

لكن الصباح كان يحمل له مفاجأة .. لقد نمت البكتريا !.. نمت فى اليوم الخامس عشر .. بيد مرتجفة مد قطعة من السلك البلاتينى وأخذ مسحة من السطح ووضعها على شريحة ، ثم صبغها بالصبغة الزرقاء .. إنها هى !.. أكثر توحشًا من جيش من الهون وأخطر من عشرة آلاف حية جرس ..

قام بحقن هذه العصويات فى خنازير غينيا .. بل حقنها فى الضفادع والسمك والسلاحف. الحقيقة أن مختبره صار مكانًا

مرعبًا .. لاحظ أننا نتحدث عن وباء غامض قاتل لا علاج له حتى ذلك الوقت .

لقد نجح ...

قالت له عبير فى تعب وملل :

ـ « ألن تنشر البحث ؟ »

ـ « بالطبع لن أنشره .. على أن أثبت أن هذه العصويات تنتقل بالهواء كما يحدث مع البشر ! »

* * *

وتدخل عبير المختبر لتجد منظرًا مروعًا ..

صرخ فيها كوخ فى جنون :

ـ « لا تدخلى يا حمقاء !.. ابقى خلف الزجاج ! »

هرعت لترقب ما وراء الزجاج فى رعب. لقد وضع خنازير غينيا فى صندوق ، ثم جلس هو خارج الصندوق وراح يضخ الهواء يدويًا عن طريق منفاخ .. هذا الهواء يمر على مزارع قاتلة من الدرن. يفعل هذا نصف ساعة كل يوم ..

معنى هذا أن الهواء داخل الصندوق يمكن أن يقتل جيشًا ..

لا أحد يعرف كيف استطاع أن يدخل الصندوق بعد هذا ليخرج جثث خنازير غينيا التى قتلها الدرن ، ولا ما فعله بالصندوق بعد هذا ..

الحق إن شجاعة هذا الرجل كانت مرعبة ، لكنها ليست أكثر من شجاعة (باستير) و(ريد) كما سنعرف فيما بعد ..

فى النهاية ظهرت على وجهه البروسى الصارم ابتسامة طفل ، وقال لها :

ــ « الآن فقط يمكن أن أعلن أبحاثى ! »

5 ــ العودة لباستير ..

حضرت (عبير) المؤتمر العلمى الذى عقده كوخ فى 24 مارس عام 1882 ، فى برلين ، حيث جلس أهم علماء ألمانيا وعلى رأسهم (إرليخ) و(فيرخوف) ..

كان كوخ لا يوحى بالثقة فهو لا يملك شيئًا من بريق باستير وتوهجه ، وكان قصير النظر مما كان يجعله يتوقف كثيرًا ويقرب الأوراق من عينه ، دعك من أن مخارج حروفه كانت سيئة .. لابد أن يكون العالم ذا بريق كاريزمى ، أو يعين من يواجه الجمهور بدلاً منه كما فعل داروين ونيوتن ..

لكن الأبحاث كانت تتحدث عن نفسها ، ولا توجد ثغرة يمكن لمعارض أن يمر منها .. إنه الإتقان والوسواس الألمانى الشهيران فى صورة إنسان ..

انتهى كوخ فوقف ينتظر هجوم المهاجمين وتمزيق الممزقين ، لكن ساد الصمت .. ببطء بدأ التصفيق واهنًا ... ثم تعالى ....

هكذا بدأت حمى كوخ تجتاح العالم ..

الكل يتكلم عن الطبيب الألمانى الذى وجد القاتل .. عندما تجد القاتل يكون هناك أمل. عندما تقرأ الروايات الفرنسية القديمة

تكتشف أن الدرن هو طريقة الموت الوحيدة تقريبًا .. من يصب بالدرن هو جثة فى القبر مهما كانت الظروف ، وكان كتاب هذه الروايات يفرغون من كتابة الرواية فيموتون بالدرن هم كذلك .. كانوا يتحاشون ذكر اسـم الدرن فيطلقــون عليه (المرض اللى ما يتسماش) أو (الاستهلاك Consumption).

لكن كوخ لم يعتبر نفسه عبقريًا قط .. ولم يحب حفلات التكريم والميداليات ، كما كان يمقت التدريس لكنه كان مضطرًا لأن يعلم التلاميذ الذى جاءوا من كل العالم ليتعلموا أساليبه .. هكذا وجد نفسه وسـط حشـد مـن اليابانيين الذين يسـتحيل أن يجيدوا الألمانية ، والبرتغاليين الذين يستحيل أن يجيدوا أى شىء ..

كانت (عبير) تلاحقه وهو يجرى أبحاثه على ذلك المرض الغامض الذى أصاب المرشد .. طبعًا بمقاييس فانتازيا كان كل هذا يتم فى أيام معدودات ، لكن بدا أن المرض مستعص على هذا العبقرى ..

لم يستطع عزل شىء ..

كانت جالسـة فى المختبر تراقـب المزارع المتعددة ، عندما فوجئت بطبيب قصير القامة يدخل .. يمسك بأنبـوب من تلك الأنابيب فيمد أنامله فيها ثم يفرك بأنامله جلد ساعده عدة مرات ..

بعد لحظات امتلأ ساعد الرجل بالدمامل والخراريج ، فصاح فى فرحة :

ـ « رائع !... هذه البكتريا التى وجدها هر كوخ وأطلق عليها اسم (المكورات العنقودية) .. قال إنه يشك فى أنها سبب الدمامل .. أنا د. (جاريه) قد برهنت على ذلك !! »

نظرت له عبير فى دهشة ثم قالت :

ـ « وماذا عن ذراعك ؟ »

ـ « لا شىء .. هى تجربة غير سارة لا أكثر ... »

ثم رحل !... الحقيقة أنه من السهل أن تعتبر هؤلاء القوم مجانين ..

هنا دخل كوخ المختبر وهو يحمل حقيبة كبيرة مع معطف .. وقد وضع المونوكل على عينه فبدا مظهره رسميًا جدًا مقبلاً على عمل جلل ..

ـ « هل أنت ذاهب لمكان ما يا هر كوخ ؟ »

قال وهو يخرج ساعة من الصديرى ليرى الوقت :

ـ « نعم .. وباء الكوليرا بدأ فى الهند وهو يجتاح العالم .. شوارع الإسكندرية خالية والجثث فى كل مكان .. أنا ذاهب لمصر .. »

— « ولكن .. ذلك الوباء الذى كلمتك عنه .. »

— « الأولوية للداء الذى يحصد الملايين ، ثم إن باستير اللعين أرسل (رو Roux) و(تويييه Thuillier) تلميذيه لدراسة المرض .. لو سبقتنا فرنسا لكانت كارثة .. سلام .. أوف فيدزيهن ! »

الحقيقة أن (تويييه) البائس سوف يموت بالكوليرا فى مصر ، وسوف يحمل (كوخ) جثته عائدًا به لوطنه فرنسا ، برغم أنه لا يطيق الفرنسيين ولا اسم بلدهم.

هكذا وجدت (عبير) أنه لا جدوى من إقناعه بالبقاء .. المشكلة هى أنها جاءت لهؤلاء القوم فى حقبة مليئة بالاكتشافات ، فلا وقت لديهم لها على الإطلاق .

لابد أن تهرع لباستير لترى إن كان قد وجد شيئًا ....

* * *

عندما وجدت باستير كان يقف هناك فى الأكاديمية الطبية بباريس .. كان المحاضر يلقى محاضرة طويلة باللاتينية والإغريقية عن سبل منع حمى النفاس التى تقتل تسعًا من كل عشر أمهات باريسيات يلدن فى المستشفى ، عندما هب باستير من مقعده واتجه للمنصة وهو يعرج كعادته بسبب شلل قدمه اليسرى. صعد على المنبر وصرخ بصوته الجهورى :

— « ما ينقل حمى النفاس بكتريا .. وهذه البكتريا تصيب المريضات بسببكم أنتم !.. بسبب الأطباء وأيديهم المتسخة أثناء الولادة !.. يا سادة أنتم سبب وفاة كل هاته الأمهات !! »

قال المحاضر فى اشمئزاز :

— « ليكن .. بكتريا .. لكنك لن تجدها أبدًا .. »

صرخ باستير وهو يمسك بقطعة الطبشور :

— « وجدتها وعزلتها .. وهى تبدو هكذا !! »

ورسم البكتريا التى تشبه المسبحة على لوح الكتابة ..

فى هذا العصر كان الأطباء يغسلون أيديهم بعد الجراحة والتوليد ولا يغسلونها قبلهما !.. كل شىء كان ملوثًا وقذرًا ..

بعد المحاضرة هنأت (عبير) باستير على براعته ، وسألته عما توصل له بصدد المرض الذى أصاب المرشد فقال :

— « لم أجد خيطًا بعد .. القصة ما زالت معقدة .. »

ثم نظر فى ساعته وقال :

— « موعد الغداء .. تعالى نتناول الغداء معًا فى مختبرى ثم نواصل الكلام .. »

جاءت الأطباق الفرنسية جميلة المنظر .. صحيح أن بعضها يحوى أفخاذ الضفادع بصلصة البوربون ، لكن (عبير) لا تعرف هذا لذا أكلت فى نهم .. كان باستير يتمتع بشهية ممتازة ، وقد راح يقول لها بفم ملىء بالطعام :

ــ « نظرياتى تقول إن هناك شيئًا أصغر من البكتريا ، لذا يتمكن من العبور عبر ثقوب مصافى البكتريا التى قمت بابتكارها ، ولهذا لا يمكن فصله أو التعرف عليه .. »

قالت فى كياسة :

ــ « تعنى الفيروسات ؟ »

ــ « لا تقولى هذا !.. نحن لم نسمع عن الفيروسات ولم نكتشفها بعد .. أعتقد أن هذا الشىء هو ما أصاب صديقك .. وهو الذى ينشر الوباء الآن .. »

ــ « وهل أنت قادر على البحث عنه ؟ »

ــ « لا يوجد شىء لا أقدر على البحث عنه .. أولادى فى كل مكان من العالم يبحثون عن رسل الموت .. سوف نكشف النقاب عن الجذام والطاعون والكوليرا .. (رو) الآن يبحث فى أصل الكوليرا .. أما أنا فأبحث فى لغز آخر مخيف سوف يعيد لفرنسا المجد الذى كاد يشاطرها إياه ذلك الألمانى .. »

ــ « التهاب الكبد الوبائى مثلاً ؟ »

قال فى شىء من الفخر :

ــ « أنا لست طبيبًا .. فعلاً لا أعرف الفارق بين الكبد والرئة .. لم أمسك مبضعًا فى حياتى ، وما زلت أشعر بخوف وتوتر عندما أدخل مستشفى ! »

كانت هذه هى الحقيقة .. الرجل الذى كتب له أن يغير تاريخ الطب كان يخاف المستشفيات ولا يطيقها ولا يطيق رائحتها .كما أنه كان لا يتحمل فكرة إعطاء حقنة لحيوان ، لهذا جاء لمساعدته بطبيب حقيقى هو (رو) ليقوم بكل العمل الصعب ..

كان طوفانًا من الأفكار والصخب .. شلالاً من الأفكار المجنونة معظمها غير علمى ولم يكن يملك الصبر على استكمالها ، لكن بعضها يصيب .. عندما تطلق ألف طلقة فلابد أن تنجح عشر طلقات فى بلوغ الهدف .. لهذا كانت نجاحاته كثيرة ، بينما لم يكن كوخ يطلق إلا طلقة واحدة تصيب الهدف بلا مناقشة ..

فى أكثر من مؤتمر التقى العدوان اللدودان كوخ وباستير ، فكان باستير يدعو خصمه لمناظرة .. إنه يجيد الجدل والنقاش وقادر على قهر كوخ الذى لا يجيد الكلام ، لكن كوخ لم يبتلع الطعم ولو مرة .. كان يبتسم من وراء المونوكل على أنفه ويقول :

ــ « سوف أرد على المسيو باستير فى ورقة علمية أنشرها قريبًا .. »

الحقيقة أن كوخ فضح باستير مرارًا وبرهن على أن لقاح الجمرة الخبيثة الذى صنعه غيــر مفيد ويقتل الماشية ، ومليء بأنواع أخرى مــن البكتريا ، وما كتب عنــه يصلح لبيع قطعة أرض لكنه لا يصلح لتقديم كشف علمى مهم. لكن الفرنسيين بالطبع لم يصدقوا حرفًا من كلام كوخ .. إنه ألمانى فماذا تتوقع من ألمانى ؟.. هل يعتقد هذا الـ (كوخ) أنه استطاع أن يزيح ملكهم المقدس عن عرشه ؟..

هاو هاو هاو هاو !!!

فى هذه اللحظة سمعت عبير صوت النباح المجنون ..

خيل لها أن هــذا صدى صــوت ، ثم نظرت خلفها ففوجئت بالمنظر المرعب ..

هناك شرطى فرنسى يمسك بعصا من الحديد طويلة ، وفى نهايتها كلب منكوش الشعر يعوى كالمجنون ويحاول الإفلات واللعاب يتطاير من فمه .. وثبت فى هلع فوق المائدة غير مصدقة ما تراه ..

الشرطى يسأل باستير بلهجة روتينية :

ــ « أين يا دوكتيور ؟ »

ــ « أنا لست طبيبًا !.. أنا كيميائى .. ضعه فى المختبر كالعادة ! »

كان منظر الكلب مرعبًا لكنه كذلك يثير الشفقة وهو يقاوم الجــر بقائمتيه الأماميتين .. لكــن لا جــدوى .. وهنا أدركت (عبير) أنها تشهد أهم فصول حيــاة باستير .. مرض الكلَب (بفتح اللام) .. معنى هــذا أن الكلب الــذى مر جوار ساقها مسعور ، وأن عضته تعنى الموت بلا مناقشة ..

قال باستير وهو يجفف فمه بالمنشفة :

ــ « الكلَب ... الهايدروفوبيا Hydrophiba كما كان يسمى قديمًا ، ومعناها الخوف من الماء ، بسبب خوف المريض من شرب الماء لما يسببه له من ألم مريع .. هذا مرض وبيل لم يشف منه أحد فى التاريخ ، ومعنى الإصابة به هى الموت .. »

الحقيقة ــ كما سنعرف حالاً ــ أن الوضع لم يتغير كثيرًا عما كان وقتها ..

ــ « ما زلت حتى اليوم أذكر صرخات البؤساء المصابين بالداء فى قريتى ، بعــد ما عضهم ذئــب مسعور .. أذكر كيف استن الأهالى قوانين تسمح لهم بإطلاق الرصاص على المرضى بالكلب .. هذه الصرخات لا تفارق ذاكرتى .. »

ثم قال لها وهو ينهض :

ــ « تعالى معى إلى المختبر لنرى ما يدور هناك .. »



6 ـ كلاب وكوليرا وأشياء أخرى ..

كان المشهد أقرب إلى بيت رعب فى الملاهى .. كل الأقفاص فيها كلاب هائجة تعوى بجنون وتتسلق القضبان الحديدية ، واللعاب يتطاير من أشداقها فى كثافة تشعرك أنه ليس لعابًا بل هو مناديل ورقية ممزقة ..

لكن هذا اللعاب كان خطيرًا ، وكان يحوى الفيروس بلا شك .. باستير لم يعرف هذا بعد ..

لقد صار هذا المختبر مركز استقبال كل كلب مسعور فى باريس كلها .

رأته عبير يتجه نحو قفص من الأقفاص فيخرج ماصة طويلة من الزجاج ، ويأمر الخادم فيفتح شدقى الكلب بأداة تشبه أدوات طبيب الأسنان ، ثم راح باستير يمتص السائل المخيف بالماصة ويبصقه فى أنابيب اختبار .. مستحيل !.. لو أن هذا الفك المرعب أطبق على وجهه .. لو أن هذا الرذاذ المميت تناثر على عينيه . لو أنه أخطأ وابتلع اللعاب فهى النهاية ..

ثم إنه كان يقوم بحقن هذا السائل فى الأرانب ..

كانت فكرة (رو) هى أن يصنع فجوة Trephine فى جماجم الأرانب تكشف عن أمخاخها .. هذه الفجوة يمكن عن طريقها حقن المرض مباشرة فى المخ .. إن (رو) جراح ويعرف ما يفعله ، لكن (باستير) لم يتصور الفكرة أصلاً :

ـ « اخرس !.. تعذب كائنًا حيًا بلا مبرر وتثقب مخه ؟.. أنت متوحش .. سوفاج ! »

هكذا اضطر (رو) إلى أن ينتهز فرصة سفر أستاذه ليجرى الجراحة على مخ كلب سليم ، ويحقن المادة القاتلة فيه ، وعندما عاد (باستير) من السفر لم يصدق ما يراه .. الكلب حى ويأكل ويلعب !.. وبعد أسبوعين سقط ـ الكلب لا باستير ـ ضحية داء الكلب اللعين ، وهو خبر سيئ للكلب البائس لكنه انتصار بالنسبة لباستير ..

هكذا صار بوسعه أن يزرع المرض ويراقب التغيرات التى يحدثها فى المخ ..

قال لها باستير وهو يشعل سيجارًا لينسى الرائحة الكريهة :

ـ « الداء قاتل مائة بالمائة .. كل كلب قمنا بحقن مخه مات بلا مناقشة .. لابد من طريقة لإضعاف الجرثومة .. »

قام بتجربة مثيــرة ، هى أن يعلق جزءًا من مخ أرنب مات بالداء فى أنبوب اختبار ليجففه. بعد أسبوعين من التجفيف حقن هذا النسيج فى أمخاخ الكلاب .. تحملت الكلاب هذه المادة القاتلة مما يدل على أنها ضعفت كثيرًا ..

بدأ يجفف أمخاخ الأرانب عشرة أيام .. تسعة أيام .. وفى كل مرة يحقن أمخاخ الكلاب بالمزيج الجديد. معنى هذا أن الجرعة التى كان يحقنها كانت تزداد قوة يومًا بعد يوم .

فى اليوم الرابع عشر قام بحقن الكلاب بالمزيج القوى الحى .. المزيج الذى لم يفقد شيئًا من قوته بعد .. .. لو لم تكن قد كونت مناعة ضد المرض فلسوف تموت حالاً ..

وجلس يدخن السيجار وينتظر النتيجة ..

قالت له (عبير) :

ـ « يبدو أن شعر رأسك قد ابيض تمامًا .. »

ـ « من يبالى بهذه السخافات ؟.. لا تنسى أننى على مشارف الستين .. إننى أشيخ .. أشيخ .. لم يعــد العمر كافيًا لتحقيق انتصار جديد .. »

لكنها كانت قادرة على رؤية شعر رأسه وهو يبيض .. إنه انتظار مرهق .. لو أن الكلاب ماتت فمعنى هذا أنه دخل فى طريق مسدود ولا يعرف كيف يبدأ ثانية ..

لكن الكلاب لم تمت .. وبعد شهر ظلت حية تأكل وتلعب فى أقفاصها ..

لقد انتصر الفرنسى العجوز ..

قالت له (عبير) فى حيرة :

ـ « معذرةً .. ما زلت لا أفهم شيئًا .. هل ستطعَم الكلاب كلها ؟ »

ـ « لا .. فكرة غبية .. هناك 2.5 مليون كلب فى فرنسا .. هل يمكن إعطاء كل كلب منها 14 حقنة ؟.. ومن أين لى بالرجال والأرانب ؟.. القصة هى أن المرض يحتاج إلى أسبوعين حتى يبلغ مخ الإنسان .. لذا سنطعم البشر الذين عضهم كلب. .. سوف يكسبون المناعة فى وقت كاف قبل أن يصل الفيروس للمخ .. »

وجرب هذا مع الكلاب فكان النجاح ساحقًا...

* * *

ـ « برقيات للمسيو باستير .. »

قالها ساعى البريد وهو يناولها شيئًا يشبه دليل هاتف الصين .. أصابها الذعر فحملت هــذا كله لباستير الــذى كــان يتناول الكرواسان والقهوة ، فراح يقلب الخطابات :

ـ « إمبراطور البرازيل يطلب اللقاح العظيم الذى اخترعته .. الأكاديمية البريطانية تطلب جرعات .. أم تقــول : أنقــذ ابنى وسأدفع لك أى شىء تريد .. إنه ينتظر الموت .. أب يقول : سوف أزحف على ركبتى وألثم حذاءك لو ...... »

شردت نظراته ونظر لها .. وانسكبت القهوة على الشرشف ..

ـ « اللقاح آمن جدًّا مع الكلاب .. لكن .. الإنسان ... أنا لا أعرف ... »

هنا اقتحمت المكان امرأة دامعة مبعثرة الشعر ، وفى يدها طفلها الذى يبلغ التاسعة من العمر .. اسمه (جوزيف) وسوف يعرفه العالم كله عندما يرى تمثالاً له فى مدخل معهد باستير . لقد عضه كلب مسعور منذ يومين فلم يبق جزء سليم فى جسده ..

ـ « انقذ ابنى يا مسيو باستير .. »

ثم ارتمت فى حضن عبير وراحت تهتز وتنهنه بقوة ...

وعندما رأى الأطباء العاملون معه الجراح فهموا ما هنالك .. هذا الطفل لن يعيش أبدًا .. إنه ميت بالفعل .. لن يخسر شيئًا لو جربنا .. هكذا اتخذت الأقدار القرار لباستير بدلاً من أن يتخذه هو ، وكانت هذه رحمة إلهية لا شك فيها ..

وفى هذا المساء ـ 6 يوليو عام 1885 ـ تلقى الصغير أول جرعة من لقاح الكلب .. أى أنه تلقى فيروسات تم تجفيفها 14 يومًا ..

بعد 14 يومًا أخذ آخر جرعة تتكون من الفيروس الذى جفف يومًا واحدًا فقط ، ولم يحدث له شىء ..

هنا نلاحظ شيئًا غريبًا : إن الله يرعى هؤلاء المكتشفين فعلاً ؛ فلم يمت واحد من مرضاهم الأوائل بالحساسية .. لو أنك حقنت إنسانًا سليمًا بمستحلب من مخ الأرنب لمات بالحساسية بالتأكيد. وبالطبع كنت ستصرف النظر عن هذه الفكرة لأنها خطرة ، لكن إرادة الله شاءت أن ينجو الصبى جوزيف ، كما نجا أول من تلقى حقنة بالإنسولين (وكانت عبارة عن مستحلب قذر من بنكرياس الكلاب) ، وأول جرعة من البنسللين (وكانت مستحلبًا قذرًا من عفن الخبز) . من الصعب اليوم أن نصدق أن ينجو شخص يتعاطى هذا (العك) ، لكن هؤلاء نجو .. وبالتالى نظر العلماء بجدية لهذه الفتوح ..

هكذا جاء العالم كله إلى (رو دوالم) يطلب الشفاء ..

خرجت (عبير) إلى الشارع فرأت مشهدًا عجبًا .. حشد فلاحين روس كأنهم خارجون من روايات تولستوى .. القلنسوات الصوفية والفراء واللحى الطويلة .. كلهم قادمون من سمولنسك فى سيبريا لأن ذئبًا مسعورًا عضهم .. هكذا جاءوا من روسيا قاصدين الرجل الوحيد الذى يملك إنقاذهم .. الكلمة الوحيدة التى يعرفونها من اللغة الفرنسية كانت :

ـ « باستيـــر !! »

لم يستطع الرجل النوم ، وظل ساهرًا مع رجاله يعدون اللقاح .. بل إنه علم (عبير) الكثير من التقنيات كى تساعده. لقد أضاع الروس وقتًا كثيرًا أثناء قدومهم من سيبريا لذا اضطر إلى أن يحقنهم بجرعتين يوميًا ليوفر الوقت ..

فى النهاية نجا معظم الفلاحين الروس ، وعادوا مظفرين لبلادهم .. أرسل القيصر الروسى صليب (القديسة آن) الماسى ومعه مائة ألف فرانك ليبنى بها معهد باستير ... المعهد الذى يعرفه الجميع اليـوم .. المعهـد الـذى ما زال يقدم اكتشافاته للبشرية ، حتى الإيدز وفيروس إنفلونزا الخنازير ..

* * *

فى هذا الوقت كان (كوخ) فى مصر يخوض مستنقعات من الكوليرا ، ويشرح عشرات الجثث ممن قتلهم هذا الداء الوبيل .. المشكلة هى أن الوباء انحسر بسرعة درامية قبل أن يتمكن كوخ من عمل شىء ، وإن كان قد وجد بكتريا غريبة تشبه حرف (الواو) قدر أنها المسئولة عن المرض ، لكن هذا غير كاف ..

هكذا طلب من الحكومة أن ترسله إلى الهند ليلاحق الوباء ..

عرفت عبير هذا وعرفت أن المشكلة تزداد تعقيدًا .. هو لا يملك الوقت الكافى لها ..

سوف يموت المرشد وتضيع هى .. لا شك فى ذلك ..

فى الدير كان المرشد يرقد هناك جوار الجدار ، وقد صار يبدو كجثة حية .. لا شىء فيه يتحرك سوى عينيه اللتين تلمعان بقوة ، وكانت الانتفاخات تحيط بعنقه كأنه يلبس قلادة فريدة من نوعها. وقد تلوثت بدلته الأنيقــة بالكامل .. أما الطفلة فكانت أفضل حالاً نوعًا لكنها لا تقدر على النهوض ..

نظرت عبير إلى المكان الخالى المتسخ ، والضوء يتسرب من النافذة عبر الغبار فيرسم خطوطًا كأنها قاعة عرض فى سينما . هناك رهبان يرقدون جوار الجدار ومن الواضح أنهم ليسوا أفضل حالاً ..

قالت للمرشد وهى تسقيه بعض الماء :

ـ « لا تقلق .. سوف نعرف ما دهاك .. »

بصوت مبحوح وشفتين أوشكتا على أن تلتصقا فلا تنفتحان أبدًا قال :

ـ « أنا خائف عليك .. لو أننى هلكت فمن الوارد ألا تعودى أبدًا ! »

ـ « أعرف هذا .. »

سعل كثيرًا ثم قال :

ـ « الوباء يزداد شراسة .. هناك الكثيرون قد ماتوا حول هذا الدير ، والدير نفسه فقد ثلاثة من رجاله .. »

ـ « وماذا أفعل إذا كان باستير وكوخ عجزا عن العثور على مسبب ؟ »

ـ « هناك غيرهما الكثير من تلاميذهما .. هما مشغولان جدًا ومسنان .. جربى (رو) و(بيرنج) و(متشنكوف) و(لوفلر) .. هناك ذلك اليابانى ذو اليد الواحدة (نوجيوشى) .. تذكرى كذلك كلمات باستير .. الميكروب صغير جدًا يمر من كل مرشحات البكتريا .. إذن هو فيروس على الأرجح .. »

ثم فرد ساقه .. رأت عبير وسط الجلد المتقيح الذى برزت شعيراته الدموية أثرًا غريبًا .. كأنه عضة .. عضة تذكرها بعضة الصرصور الذى عضها فى طفولتها فملأت الدنيا صراخًا ..

هناك عضة أخرى فى الساق اليسرى .. لكن ما معنى هذا ؟.. هى لا تملك أية خبرة طبية ..

قالت عبير بعد تفكير :

ـ « رو .. تلميذ باستير الجراح البارع .. سوف آخذ رأيه .. »

7 ـ هل هى حشرة ؟

كان (رو Roux) منهمكًا فى ذلك الوقت فى سحب عينة من حلق صبى . صبى مسكين غلفت الدفتريا حلقه بذلك الغشاء الكريه الرمادى الذى يعنى الموت خنقًا .. حكم بالإعدام صدر على الصبى لا راد له .. لن يصل عفو من الملك أو رئيس الجمهورية ، ولن يأتى فارس مسرع يصرخ : توقفوا ! وهو يلوح بالعفو ..

يرقد الصبى متورم العنق أزرق اللون يجاهد من أجل الهواء الذى لن يصل لرئتيه ، و(رو) يمد أنبوبًا فى حلق الصبى ليأخذ عينة من الغشاء القاتل .. من جديد نتذكر أن الدفتريا كانت مرضًا لا علاج له ، وكانت تنتقل بالتنفس .. معنى هذا أن شجاعة (رو) لا تختلف عن شجاعة من يمد يده فى فم تمساح ..

نفس التجارب يجريها فى ألمانيا شاب آخر متحمس هو تلميذ كوخ (بيرنج Behring) .. ومن المصادفة العجيبة أن اسمى العالمين (إميل) .. (إميـــل رو) و(إميـــل بيرنج) .. وكلا (الإميلين) يعمل على بكتريا سبق أن فصلها وعرفها تلميذ كوخ (لوفلر) .. لوفلر ذو الشارب الكث المنتصب الذى كان يعوقه عن النظر فى عدسة المجهر ..

لا يمكن للوفلر أن يخطئ .. إن كوخ الرهيب .. كوخ القيصر .. يقف جواره ويراقب عمله ويصحح أخطاءه :

ـ « خذ وقتــك وتمهل .. الدفتيريا موجــودة منــذ الخليقة ولســوف تنتظرك .. لســنا مثــل باستير الأحمق الــذى يثب للاستنتاجات .. ليكن لك من نفسك ألد خصم لك .. لتنتقد نفسك طيلة الوقت وتشك فى كل شىء تعمله .. وجه لنفسك أسئلة محرجة .. حاول أن تثبت أنك نصاب متعجل ومدعى علم ! »

الآن فى فرنسا كان (رو) منهمكًا فى عمل مضاد لسم الدفتيريا وقد ساعده (يرسين yersin) العظيم .. يرسين الذى سيسافر لفيتنام فيما بعد ويكتشف البكتريا المسببة للطاعون ، ولسوف يطلق عليها (باستوريلا بستس) تكريمًا لأســتاذه ، لكن العلم سيصر على أن يسميها (يرسينيا بستس) تكريمًا له هو ..

جلست (عبير) جوار (رو) وهو منهمك فى حقن الأرانب بسم الدفتريا ، وقالت له :

ـ « هناك عدد من الناس يوشكون على الموت ، وباستير وكوخ لم يجدا الميكروب المسبب .. هل يمكنك أن تساعدنى ؟ »

قال لها وهو يكتم نفسه كى لا يستنشق السائل اللعين :

ــ « فى الواقع أنا مشغول جدًا .. إن (بيرنج) فى ألمانيا يقترب من الوصول لمضاد الدفتيريا .. الوقت ضيق ، وأنا أعرف تلاميذ كوخ هؤلاء .. إنهم لا يتعبون ولا يرتكبون أخطاء.. »

ثم تناول أنبوب اختبار به مصل رائق أصفر وقال :

ــ « هل تعرفين ما هذا ؟.. لقد قمنا بحقن سم الدفتيريا فى الخيول لفترة طويلة حتى كونت أجسامًا مضادة ومناعة ضد هذا السم .. بعد هذا أخذنا دم الحصان واستخرجنا منه المصل .. حقن هذا المصل فى الأطفال المصابين بالدفتريا أذاب الغشاء القاتل تمامًا . جعلهم يتنفسون !.. هل تفهمين هذا ؟ »

بدت عليها الحماسة وهتفت :

ــ « إذن أنت يا (رو) منقذ البشرية من الدفتيريا .. »

ــ « ليس بالضـــبط .. (بيرنج) فى ألمانيا توصل لنفس النتيجة فى ذات الوقت .. لكننا قد وضعنا أساس مفهوم المصل .. المصل الذى يحوى أجسامًا مضادة ويعطى مناعة فورية .. لقد غيرنا التاريخ !! »

ــ « أهنئك .. »

أضـــاف :

ــ « أقترح أن ترسمى كل الأحداث التى سبقت إصابة صديقك هذا .. لقد التقط العدوى من شخص ما فى مكان ما .. ماذا حدث بالضبط قبل المرض ؟... »

* * *

يردمون التـــراب ، ثم تمشى الخيـــول فوقه لتدكه أكثـــر .. وتنطلق الحوافر مبتعـــدة ، وعبير تقـــف وحدها فى لا مكان .. لا تعرف أين تذهب .. لا تعرف ما تعتقده ..

لكنه دائمًا يأتى فى لحظات كهذه ..

هذا هو يخرج من وسط الغبار والنقع .. يمشى وسط الحر ويخترق سحاب الذباب ..

المرشد ..

ــ « لقد انتهت المغامرة يا (أليس) ولاقى المتنبى نهايته فى سن الواحدة والخمسين .. يبدو أن علينا أن نرحل .. »

* * *

هتفت فى دهشة :

ــ « كنت فى العراق .. ولكن هذه كانت قصة أخرى .. »

نظر لها فى عدم فهم .. ما معنى قصة أخرى ؟.. هذا هو الواقع ولا واقع سواه بالنسبة له. كانت تستعيد الشريط فى ذهنها :

ـ « كان هناك مجموعة من القرامطة السفاحين الذين قتلوا المتنبى .. وكان هناك الكثير من الذباب .. هل تعتقد أنه من الممكن أن تنتقل العدوى من قصة لقصة فى فانتازيا ؟ »

(رو) يهرش رأسه فى حيرة .. لربما التقطت العدوى ؟.. لكن من قال إن الدفتيريا تصحبها هلاوس ؟

ـ « هل تعتقد أن الذباب لعب دورًا ؟.. إن الذباب الصحراوى يلدغ .. »

رفع حاجبيه فى عدم فهم ، ثم قال :

ـ « الحشرات لا تنقل الأمراض .. هذا معروف .. »

صاحت فى غيظ :

ـ « يا سلام !!.. والملاريا والليشمانيا والحمى الصفراء وحمى الوادى المتصـدع والطـاعون والتيفـوس والحمى الراجعة ... و......؟ »

هناك حزمة كاملة من الفيروسات تنقلها الحشرات ، ويطلقون عليها اسم ARBO فكيف لا يعرف ذلك ؟

ثم أدركت الحقيقة .. هذه أشياء لم يعرفها الطب بعد .. لم يتصور أحد أن تنقل الحشرات أى مرض ، وظل هذا لغزًا حتى اكتشف اللغز من يُدعى ... من يُدعى .....

لقد نسيت الاسم ...

قالت وهى تنهض مغادرة المختبر الذى يعج بالدفتيريا :

ـ « شكرًا لك .. سوف أواصل البحث .. »

* * *

كانت تركض فى الحقل متجهة إلى البقعة التى سقط فيها المرشد مريضًا .. الطبيعة ساحرة غناء ، وهى للمرة الأولى ترى حقولاً من الأزهار ...

لكن هناك شيئًا غريبًا .. الريف هو الريف فى كل مكان .. الريف أوروبى الطابع ، لكنه ليس الريف الألمانى ولا الفرنسى كما كانت الأمور ..

بدأت تبطئ من ركضها وتنظر حولها .. كانت تلهث بلا توقف .. هنا سمعت أطفالاً يلعبون لعبة تشبه لعبة (افتحى يا وردة) المصرية .. لكنهم كانوا يغنون أغنية ذات مقاطع إنجليزية واضحة. إنها فى إنجلترا إذن ... (جلوسسترشاير) بالتحديد .

هناك كان جالسًا فى حديقة بيت ريفى .. تحيط به مجموعة من الفتيات الفاتنات اللاتى يلبسن كالفلاحات. ولو كانت عبير أكثر خبرة لأدركت أنهن يلبسن ثياب حالبات الأبقار ..

هناك أم تتقدم نحوه وهى تشمر عن ذراع ابنها الصغير .. الصغير يبدو مذعورًا لا يريد أن يتقدم ، لكن الطبيب الشاب ذا الوجه المرح الطفولى نوعًا يقول له :

ــ « لا تخف .. ألم تلمس شوكة الوردة من قبل ؟.. الأمر هنا أقل إيلامًا .. »

ومد يده ليضع قطرة من السائل على ذراع الصبى ، ثم مد يده وأحدث خدشًا بدبوس فشـــهق الصبى ، لكنـــه قاطعه صائحًا فى مرح :

ــ « لم تشعر بها .. أليس كذلك ؟ »

بالطبع تألم الصبى كثيرًا لكنه خضع للإيحاء وأقنع نفسه أنه لم يشعر بألم ، وقالت الأم للطبيب وهى تثنى ساقيها فى حركة أنيقة :

ــ « شكرًا د. (جنر) .. »

هتفت (عبير) وهى تتقدم منه منبهرة :

ــ « أنت (إدوارد جنر Jenner) مكتشف التطعيم !... أنت من خلص العالم من داء الجدرى القاتل ! »

ابتسم فى تواضع وقال :

ــ « أنا مجرد طبيب أرياف .. »

ــ « كذلك كوخ .. »

ــ « وجدت أن البنات اللاتى يحلبن الأبقار لا يصبن بالجدرى أبدًا .. السبب أنهن تعرضن لإصابة سابقة بداء (جدرى البقر) من البثور الموجودة فى ضرع البقـــر .. معنى هـــذا أن الإصابة بفيروس جدرى البقـــر ــ وهى لا تؤذى الإنسان ــ يمكن أن تحمى الإنسان من الجدرى البشرى القاتل .. هكذا صنعت هذا السائل من بثور جدرى البقر وأقوم بجرح الجلد لأجعله يتسرب إلى أوعية اللمف .. بعد قليل يصير الطفل مقاومًا للجدرى .. »

نظرت عبير لأعلى ذراعها فلم تجد شيئًا على جلدها .. لا توجد ندبة .. إذن هى لم تتعاط هذا اللقاح ..

قال (جنر) :

ــ « هذا طبيعى .. لقد اختفى وباء الجدرى من على ظهر الأرض منذ العام 1974 .. لم تعد هناك ضرورة للتطعيم .. هل ترغبين فى أخذ جرعة على سبيل (الاستعمار) ؟ »

– « لا شكرًا . »

– « لقد برز مفهوم اللقاح للوجود .. العلم أطلق على العملية اسمه Vaccination نسبة للفظة Vacca اللاتينية بمعنى (بقرة) .. »

كان مسرورًا من نفسه فعلاً ، لكن لا لوم عليه .. هو فعلاً قد غير تاريخ الطب كما غيره (رو) بمفهوم المصل .. لابد أنك تذكر جدول المقارنة بين المصل واللقاح فى كتاب العلوم بالمدرسة. يكفى أنك ترى فى كل مكان أناسًا مسرورين من أنفسهم بلا سبب يبرر هذا .. هناك من هو مسرور بنفسه بسبب شاربه الكث أو سيارته أو طريقته فى التدخين .. من الجميل أن تسمح لمن هو مثل (جنر) أن يسر بنفسه قليلاً ..

سألته وهى تجلس على العشب الجميل اللين :

– « هل لديك فكرة عن انتقال الأمراض بوساطة الحشرات ؟ »

فكر قليلاً ثم قال :

– « عليك بـ (ثيوبالد سميث) .. هل تتضايقين من الأمريكان ؟.. لا ؟.. جميل .. جميل .. بعض البريطانيين لا يتحملون الأمريكان و(سميث) منهم .. يبدو أن يومك سيعج بالأبقار ! »

8 – مرح مع القراض ..

(ثيوبالد سميث Theobald Smith) .. هذا هو الاسم الذى غاب عن ذهنها .. الطبيب الأمريكى الذى برهن على أن الحشرات قد تنقل الأمراض ..

تكساس .. كأنك ترى مشاهد من فيلم رعاة بقر .. رعاة الأبقار بالأنشوطة والقمصان الكاروهات وسراويل الجينز يلاحقون الأبقار هنا وهناك .. طلقات رصاص و(يبى ى ى ى !)..

كان هناك قطيع من الأبقار يتقدم ويبعثر الغبار فى كل مكان .. وكان هناك رجل يركب حصانًا ويلوح بقبعته صارخًا :

– « كى يبى آى بى ! !! »

ثم يمد يده لقرابه فيخرج زمزمية ماء ويجرع منها جرعات تغرق صدر قميصه ، ويرفع المنديل على أنفه من جديد. راعى بقر عادى جدًا من الذين تعج بهم هذه القصص ، حتى توقعت عبير أن يبرز بعض قطاع الطرق ويتم تبادل الرصاص ..

دنت منه وصاحت ثم سعلت بسبب الغبار ، وبصقت وعادت تصيح :

– « أين أجد د. (ثيوبالد سميث) ؟ »

هتف وهو ينزل المنديل الذى يسد به أنفه :

ـ « أنا هو .. ماذا تريدين ؟ »

كان هذا أغرب طبيب رأته فى حياتها .. والأهم أنه لا يتكلم بلكنة الغرب .. لكنه كان قد تعلم عادات وطباع رعاة البقر منذ أوفده مكتب صناعة اللحوم فى واشنطن لدراسة الكارثة التى تحوم حول القطعان هنا .

قالت له وهى تبصق الغبار :

ـ « ما زلت لا أفهم المشكلة التى تحيركم ... »

نادى عجـوزًا نحيلاً من الطراز الـذى يحمـل زجاجة خمر دائمة ، ولا توجد سن واحدة فى فمه ، وقال :

ـ « العم مكماهون العجوز سيشرح لك"

قال (مكماهون) بطريقة رعاة البقر التى تمط الكلمات ، وهو يدس أنامله فى حمالتى السروال :

ـ « الماشية .. الجدعان يسمونها حمى تكساس .. فلأشنق إن لم يكن لوسيفر العجوز موجودًا هنا .. عندما نأتى بقطعان أبقار من الشمال إلى الجنوب تمرض وتموت .. وعندما ننقل أبقار الجنوب إلى الشمال فإنها تظل سليمة لكن أبقار الشمال

تمرض وتموت .. إنها تسقط على الأرض كهندى أحمر من الشيين تلقى رصاصة فى بطنه ، وتكف عن الأكل .. فلتأخذنى مصيبة إن كنت أفهم ما يدور هنالك .. الدوك جاء هنا يحاول فهم المعضلة .. »

ترجل (سميث) من على صهوة الجواد ، وقال لها وهو يقودها إلى كوخ صغير :

ـ « لابد أن حلقك يشبه حذاء (جيرونيمو) .. تعالى اشربى شيئًا .. »

فى الكوخ ناولها مغرفة حلة ملأها من برميل ملىء بالماء ، وقال :

ـ « لقد كنت معجبًا بكوخ .. علمت نفسى الألمانية ، ثم عكفت على كل شىء كتبه ذلك العبقرى الألمانى .. بدأت أزرع الميكروبات بطريقته ولدى مختبر لا بأس به .. »

قالت له :

ـ « أنا أريد مساعدتك فى فهم كيفية إصابة صديق لى بوباء مخيف .. هناك لدغات حشرات على ساقيه .. هذا ما دفعنى أن أشك فى ... »

ــ « نحن لم نثبت شيئًا بعد .. ما زلت أجرب .. هل استرحت ؟.. تعالى معى إلى المرج .. »

هكذا عادت من المرج ثم عادت إلى المرج .. هذه المرة أعطوها جوادًا أسود لطيفًا وسرجًا جانبيًا يناسب النساء . كانت الماشية الشمالية هناك فى المرعى .. رباه !.. لا يجب أن تملك خبرة بيطرية كى تدرك أنها فى أسوأ حال .. تبول على نفسها فينزل البول أحمر كأنه الدم .. لا تأكل بتاتًا وإنما ترمق القادمين بعيون تشى بالموت القادم .

قال لها (سميث) فى تأثر :

ــ « ماشية شمالية .. لم تتحمل أن توجد فى مرعى جنوبى .. إنها تموت خلال أيام . لكن العكس غير صحيح .. لو نقلنا ماشية الجنوب لمراع شمالية فإنها تظل سليمة ، لكن الماشية الشمالية تموت ! » :

قالت وهى تحك رأسها :

ــ « مسألة منطقية غريبة .. لا تفسير لها سوى أن ماشية الجنوب تحمل لعنة ما .. »

أخرج العم مكماهون العجوز غليونه المصنوع يدويًا ، وحشاه بالطباق ثم أطلق سحابة كثيفة وقال :

ــ « الفلاحون يتحدثون عن قراضة .. حشرة قراض تعيش على الأبقار وتنقل حمى تكساس .. سام العجوز فى الحانة قال لى هذا ، وهـــو رجـــل طيـــب إن لم يفرط فى احتساء الخمر .. فلأشنق إن لم يكن طيبًا .. »

قال سميث مقاطعًا العجوز الذى ينوى أن يثرثر إلى ما لا نهاية :

ــ « طبعًا الأطباء يقولون إن هذا كلام فارغ .. لكنى وثقت فى الفلاحين .. إنهم من يقضى كل حياته مع الماشية .. إنهم من يطعمها ويولدها ويدفن الميتة منها .. إنهم يعرفون كل شىء عن الماشية ، أكثر بالتأكيد من طبيب يعيش فى مكتبه وسط المراجع"

وجدت منطقة محاطة بالسياج ورأت سميث يقتاد لها ثلاث أبقار جنوبية سليمة لكنها مغطاة بحشرة القراض ، ثم جاء بست أبقار شمالية سليمة ووضعها معها .

قال لها :

ــ « سنبدأ الجزء القذر من العملية ! »

كانت هناك ثلاث أبقار جنوبية أخـــرى امتـــلأت بالقراض . فجلس فى الشمس الحـــارقة مع ثلاثة رجـــال آخرين ، وراحوا يلتقطون الحشرات بأناملهم .. ثم يلقونها فى دلو من المطهرات

لتموت .. عملية (تفلية) ضخمة معقدة جدًا ... ينزعون الحشرات الملتصقة بالشعر والمتوارية فى كل ثنية من جسد البقرة .. البقر يعض ويركل بلا توقف محتجًا على هذا الانتهاك لجسده. واضطرت عبير فى اشمئزاز إلى أن تساعد قليلاً .. كان العرق يبلل ثيابها ويتساقط من أرنبة أنفها وهى تنزع الحشرات القذرة من فراء الأبقار .. عدد لا نهائى ..

فى النهاية صارت الأبقار نظيفة تمامًا ، هكذا نقلها إلى منطقة أخرى محاطة بالسياج ووضعوا معها أبقارًا شمالية سليمة ...

النتيجة .. الأبقار الشمالية فى السياج الأول أصيبت بالقراض ثم بدأت تكف عن الأكل وتموت. فى السياج الثانى ظلت تأكل وترعى العشب ..

قام (سميث) بإخلاء السياج الأول ، ثم نقل له بعض الأبقار الشمالية السليمة من السياج الثانى .. واستطاع أن يرى كيف يتسلق القراض سيقان الماشية ويبدأ فى اللدغ .. وكيف بدأت الماشية تمرض ...وتموت ..

قالت له (عبير) :

ـ « إذن القراض ينقل المرض من ماشية الجنوب لماشية الشمال .. فلماذا لا تمرض ماشية الجنوب ؟ »

قال لها وهو يفحص قراضة تحت المجهر :

ـ « لأن كل ماشية الجنوب تحمل القراض منذ صغرها .. لقد أصيبت بالمرض فى سن صغيرة ، وبالتالى صارت منيعة ضده .. إنها تحمل المرض ولا تصاب به .. هكذا يمكننا القضاء على حمى تكساس لو كافحنا القراض .. »

ثم تنهد وقال :

ـ « ليس المهم أننا قضينا على حمى تكساس ... الأهم أننا برهنـــا على أن الحشرات تنقل البكتريا والميكروبات .. ليكونن هذا فتحًا طبيًا جديدًا ! »

كان ذلك الطبيب العسكرى البريطانى واقفًا يصغى ، فلما سمع هذا الجزء نهض واعتمر قبعته فى مرح .. وصاح :

ـ « هذا ما كنت أريد ســماعه !... أنا ذاهــب إلى جنوب أفريقيا لأكتشف سر مرض النوم ! »

قال لها (سميث) باسمًا :

ـ « هذا هو ديفيد بروس Bruce .. »

وقاطع الحديث رجل ذو شارب كث يبدو طبيبًا عسكريًا آخر وهتف :

ـ « أنا ذاهب للهند لأثبت أن البعوض ينقل الملاريا ! »

قال سميث مفسرًا :

ـ « وهذا هو (روس Ross) البريطانى .. لقد قدم اكتشافى الجواب لكل هؤلاء .. »

قالت له فى حزن :

ـ « يبدو أن الجميع سعداء باستثنائى .. ما زلت أعيش فى لغز .. »

قال وهو يعتمر قبعته ويركب جواده :

ـ « تعالى لترى (والتر ريد) .. إنه قد يملك الإجابة .. »

9 ـ والتر ريد ..

نحن فى فانتازيا ، لذا يمكن أن نتصور رحلة على ظهور الخيل من تكساس إلى غابات كوبا .. هذا شىء سهل جدًا كما نرى ..

نحن الآن فى قاعدة أمريكية فى كوبا عام 1900 .. بالتحديد سان كرستوبال دى هابانا ..

رفع (سميث) يده مودعًا وقال لعبير :

ـ « سوف تجدين د. (والتر ريد Reed) هناك .. سلام .. خذى الحذر فقد تلقين حتفك بسهولة .. »

ثم ضرب خاصرتى الحصان ، فانطلق يرمح مبتعدًا ..

مضت (عبير) وسط الأدغال الاستوائية لا تعرف إلى أين تذهب حقًا .. أشجار متشابكة فى كل مكان ، حتى بدأت تقلق فعلاً .. المرشد مريض وربما مات ، ومعنى هذا أنها قد تضل طريقها بلا رجعة ...

هنا فوجئت بجنــود أمريكان يحيطــون بها وهــم يلوحون بسلاحهم .. جنود فى ثياب بداية القرن العشرين طبعًا .. رفعت يديها وهتفت :

ـ « أبحث عن الميجور (ريد) .. »

هكذا أمسك أحدهم بلجام الحصان واقتاد جوادها عبر المستنقعات إلى مرتفع صغير .. هناك وجدت معسكرًا كاملاً وكانت هناك خيام ومتاريس ..

(والتر ريد) نفسه كان شابًا ممشوق القوام عليه ملامح العسكريين التى لا تخطئها العين .. أهم طبيب عسكرى أمريكى على الإطلاق وربما أهم طبيب كذلك ، وفيما بعد سوف ينشئون مستشفى (والتر ريد) العسكرى تكريمًا له. وقد خرج من خيمته ليلقى نظرة على هذه الزائرة الغريبة ، فقالت له :

ـ « جئت أطلب عونك .. »

قال فى جفاء وهو يمضغ السيجار :

ـ « لا وقت لدينا .. نحن فى كارثة حقيقية هنا .."

ودخل خيمة قماشية منصوبة هناك فتبعته فى حذر . وليتها لم تفعل ..

لقد رأت الكثير من المرضى منذ بدأت هذه المغامرة ، لكنها اهتزت فعلاً عندما دخلت هذه الخيمة التى امتلأت بالجنود الأمريكان المرضى . كانوا صفر الوجوه والعيون فى أتعس حال

ممكن ، وكان بعضهم يقىء بلا توقف فيفرغ مادة صفراء مقززة على الأرض. البعض كان ينزف بلا توقف من أنفه وفمه .. البعض امتلأ جلده بالبقع الزرقاء التى تدل على نزف تحت الجلد ..

كل شىء قذر .. كل شىء مخيف .. كل شىء ملوث ..

كتمت أنفاسها بالمنديل لأنها شعرت بأن المرض يتسلل إلى أحشائها ، فقال ريد :

ـ « لا ينتقل بالهواء .. لا تقلقى .. وأكون شاكرًا لو أخفيت معالم الجزع عن وجهك أمام جنودى الشجعان هؤلاء .. »

قالت دون أن تبعد المنديل :

ـ « ما الذى لا ينتقل بالهواء ؟ »

ـ « وباء الحمى الصفراء !.. إنه يجتاح المنطقة ويكلفنا جنودًا يفوق عددهم أى قتال .. »

ـ « وهل وجدت الميكروب المسبب له ؟ »

ـ « لا .. شرحنا عشرات الجثث بلا جدوى .. يبدو واضحًا أن المسبب له فيروس ؛ لهذا لا نراه بالمجهر .. والمشكلة أننا لسنا واثقين من كيفية انتقاله .. »

ــ « قيل لى إنك تتهم الحشرات .. »

ــ « الأهالى يتهمون البعوض لكننا لم نتأكد من ذلك .. »

ثم خرج معها إلى خارج المعسكر .. كانت هناك ساحة ممتدة أقيم بها كوخان من خشب. وقف أمام الكوخ الأول ودق الباب .. انفتحت كوة صغيرة وأطل وجه جندى أمريكى له شارب كث من وراء شبكة من السلك ..

ــ « كيف الحال يا (دونالد) ؟ »

ــ « بخير يا سيدى .. »

نظر لعبير التى لا تفهم وقال :

ــ « هذا هو الكوخ (أ) .. إنه أقذر مكان يمكن تصوره .. لقد بعثرنا فيه الغبار من عنابر الذين ماتوا .. فرشناه بوساداتهم وأغطية فراشهم الملوثة .. الأكل هنا يتم بأطباق وملاعق من ماتوا .. »

هتفت عبير وهى توشك على إفراغ معدتها :

ــ « يع ع !.. ومن المجانين الذين قبلوا هذا ؟ »

ــ « هم جنودى الشجعان .. طلبت متطوعين فوجدت .. »

ــ « هذا الكوخ إذن وسيلة تعذيب سادية .. »

ــ « فيه كل شئ مقزز أو بشع .. لكن فيه مزية واحدة هى أنه ليست فيه بعوضة واحدة .. لا يمكن أن تدخله بعوضة .. »

ثم اتجه إلى الكوخ الثانى ودق الباب فأطل وجه جندى من الكوة ..

ــ « هل أنتم بخير يا (جيرالد) ؟ »

ــ « (ويليام) ليس على ما يرام يا سيدى .. »

استدار ريد لعبير يشرح لها :

ــ « هذا هو الكوخ (ب) .. مكان نظيف مغسول بعناية بالمطهرات .. ملاءات نظيفة وآنية معقمة .. كل شىء رائع فيما عدا شيئًا واحدًا .. »

قالت فى ذكاء :

ــ « البعوض حر فى الدخول والخروج ! »

ــ « لقد فهمت اللعبة !... »

وهكذا بعد يومين اصطحبها إلى الكوخ الأول وفتحه .. كانت القذارة بالداخل لا تصدق فعلاً ، وكان الجنود بالداخل فى أسوأ حال من الاشمئزاز والتقزز .. لكنهم كانوا مسالمين ..

اتجه للكوخ الثانى وفتحه .. وعلى الفور سقطت جثة جندى كانت تستند إلى الباب .. وعلى شفتيه قىء دموى جاف .. وبنظرة عابرة على الكوخ أدركت عبير أن كل الجنود مرضى .. منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر .. يبدو أن التجربة نجحت فعلاً ...

قال ريد وهو يفرك يديه حماسة :

ـ « البعوضة هى الشىء الذى ينقل فيروس الحمى الصفراء .. لقد مات هؤلاء الشجعان كى يخلصوا العالم من هذا الكابوس .. لم يعد هناك مجال للشك ، وبرغم هذا لابد من أن أتأكد أكثر .. »

وهناك فى خيمته راح يبحث حتى أخرج مخبارًا زجاجيًا مغلقًا مليئًا بالبعوض .. بعوض حى يحاول الفرار بلا جدوى .. وضع المخبار على جلد ساعده وأزاح الغطاء وتأوه فى ألم ونشوة ..

قالت (عبير) فى ذهول :

ـ « ما الذى تفعله بالضبط ؟ »

ـ « آخر لمسة من التأكد ..! لقد جمعنا هذا البعوض من خيام مرضى الحمى الصفراء !.. لا شك أن كل بعوضة مثقلة بالفيروس .. »

ـ « لكن هذا جنون ! »

ـ « ليس بالضبط ... أشك فى أن تقتل الحمى الصفراء رجلاً قويًا مثلى ! »

بدا لها سخيفًا جدًا .. لقد أثبت نظريته ولا مجال للشك ، لكن ما يقوم به انتحار أكيد .. والحقيقة أنه أصيب بالحمى الصفراء منها ونجا منها بمعجزة ما ، بينما مات مساعدوه ..

أعاد غلق المخبار وقد امتلأ ساعده بالثقوب الحمر الصغيرة. فقالت عبير وهى تجفف عرقها بسبب الرطوبة والحرارة الشديدة :

ـ « ميجور .. من الواضح أنك ستموت بسرعة لذا أريد إجابة سريعة بصدد المشكلة التى أواجهها .. »

وراحت تحكى له قصتها مع المرشد والمرض العجيب الذى أصابه ..

أشعل سيجارًا كوبيًا غليظًا كريه الرائحة وراح يصغى لما تقـول ، وكـان الظلام قـد بدأ يحـل فنهض ليشعل مصباح الكيروسين .. أشعل شمعة وثبتهـا فى طست معدنى ثم ملأ الطست بالماء ووضعه على المكتب. راح البعوض يحوم حول

النار فيسقط فى الماء أو يحترق .. هذا هو الصاعق الكهربى الخاص بذلك العصر ..

فى هذا الجو الملوث قد تعنى لدغة البعوضة حياتك نفسها ...

قال لها لما انتهت من قصتها :

ـ « من الواضح تمامًا أنك تتحدثين عن فيروس .. فيروس ينتقل بلدغة الذباب .. ولكن ما يثير دهشتى أن هذا الوباء لم يكن معروفًا فى تلك البقعة من بلاد بين النهرين .. هناك من جاء به .. هل كان هناك أشخاص غير عرب فى المشهد ؟ »

فكرت قليلاً فى الموضوع ثم قالت وهى تتأمل جثث البعوض السابحة فوق الماء :

ـ « هناك خادم هندى كان مع القرامطة .. هذا هو ما أذكره .. »

قال لها :

ـ « لو أردت رأيى .. الهند تعج بالأوبئة الغريبة .. لقد جاء الخادم بالوباء معه ، وهذا الوباء انتقل لصديقك والآخرين عن طريق لدغ هذا الذباب .. أقترح أن تصممى تجربة مماثلة لتجربتى هذه .. لابد أن تذهبى هناك وتواصلى البحث .. »

وهل يظل المرشد حيًا إلى أن تعود بالجواب ؟

كانت تعرف الإجابة : الغرض من هذا كله ليس جعلها تنقذ المرشد ، ولكن جعلها تقابل أكبر عدد من الصيادين وأن تعرف ما يقومون به ..

تعرف أنها ستذهب للهند سواء أرادت أو لم ترد ، لأن فانتازيا تحتم ذلك ...

10 ـ المـوت يأتى من الجانج ..

عندما رست السفينة بها على سواحل الهند ، وعندما رأت (كلكتا) من بعيد ، خطر لها أنها زارت الهند أكثر من أية دولة أخرى فى فانتازيا .. إن الهند حلم حى لا يمكن تجاهله .. حلم حار حريف المذاق له رائحة البخور والعرق والأمطار الموسمية ..

لكنها غير رائقة المزاج هذه المرة .. لا تعرف من أين تبدأ ولا أين تذهب بالضبط ... عليها أن تجد خيطًا تبدأ منه ...

عندما مشت فى شوارع كلكتا الموحلة التى أغرقتها الأمطار ، وسط الفقر والأطفال العراة والمتسولين المصابين بالجذام ، لاحظت أن كل شىء ليس على ما يرام .. البلد ليس رحبًا على الإطلاق .. هناك مشكلة ما ..

كانت هناك خيام منصوبة ، ورجال يركبون عربات عتيقة بدائية ينقلون لها أجسادًا مغطاة بملاءات بيضاء ..

من بعيد ترى سحابة دخان تتعالى إلى الأفق من فوق تل ، وبرغم أن المشهد بعيد فليس من الصعب أن تخمن أن هذه محرقة جثث ..

يبدو أنها جاءت فى قلب وباء مريع ..

مضت بين الخيام لا تعرف إلى أين تتجه ، هنا اصطدمت بذلك الرجل الغربى ذى اللحية والمونوكل ، وكان يحمل فى يده أنبوب اختبار ..

نظر لها ونظرت له ثم هتفت فى فرح :

ــ « هر كوخ !... أما زلت فى الهند ؟ »

ــ « وأنت تلك الفتاة النحيلة .. نسيت الاسم .. »

ــ « أنا لم أقل اسمى قط .. »

ــ « شون .. شون .. كانت لديك مشكلة فهل وجدت الحل ؟ »

ــ « لا .. وأنت ؟ »

ــ « اقتربت جدًا .. »

كانت قد نسيت أن (كوخ) فى الهند الآن . لقد بحث فى مصر جيدًا لكن الوباء كان قد انحسر ، من ثم طلب من الحكومة أن توفده إلى الهند للبحث عن الوباء. كان قد وجد البكتريا الشبيهة بحرف (الــواو) أو (الشــولة) فى كل حالة مصابة بالكوليرا تقريبًا لكن هذا غير كاف بالنسبة له كما نعرف ..

كان هناك عنقود عنب مغرى الشكل فى طبق جوارها فمدت يدها تلتقط حبة ، هنا هوت يده تصفع يدها وصرخ فى عصبية :

ــ « مجنونة !.. لا تتناولى أية فاكهة أو خضر طازجة .. لا تأكلى أى شىء لا يتصاعد منه الدخان .. لابد من عصر ليمون على الماء قبل شربه وربما غليه كذلك !... إن الموت ينتظر فى كل ركن هنا ! »

ــ « آسفة .. »

قال لها وهو يدخل خيمة رقد على أرضها الرطبة عشرات من الهنود المرضى الذين لم تبق نقطة ماء فى عروقهم :

ــ « قمت بتشريح أربعين جثة .. فى كل مرة أجد البكتريا الواوية .. »

ــ « وهذا لا يثبت شيئًا حسب قواعدك .. »

ــ « نعم .. لهذا صار على أن أضع هذه البكتريا فى مزرعة ملائمة ، وقد نمت جيدًا على حساء اللحم .. »

لقد بحث عن هذه البكتريا فى نهر الجانج وفى الآبار الملوثة التى يشرب منها الهنود ..

وجدها .. وجدها بكثافة .. وعرف كيف أنها تنتقل عبر شرب هذا الماء الملوث لتصيب البشر ، ثم تنزل مع إفرازاتهم لتصيب سواهم ..

ــ « إن نهــر الجانج ينشــر الكوليرا فى العالم كله ، لكن لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة للهندوس لأنه نوع من الحج المقدس بالنسبة لهم .. لا أعتقد أن وباء كوليرا فى العالم لم يبدأ من نهر الجانج .. »

قالت له (عبير) فى انبهار :

ــ « أنت فعلاً قيصر الطب .. »

قال فى لا مبالاة حقيقية :

ــ « كلام فارغ .. كل ما قمت به هو أننى بحثت فى أماكن لم يبحث فيها أحد قبلى ، لهذا كان الذهب مكومًا بانتظار من يجده .. »

هذه هى تقريبًا ذات العبارات التى سيقولها للإمبراطور وهو يتلقى وسام التاج عند عودته إلى ألمانيا .

أمسك بأنبوب ملىء بالميكروب المميت فى فخر وقال :

ــ « هذا الأنبوب به كوليرا تكفى لقتل جيش الإسكندر المقدونى .. »

قبل أن يكمل الكلام كان رجل ملتح آخر قد برز من مكان ما وانتزع الأنبوب من يده ، وقال ضاحكًا :

ـ « كـــلام فـــارغ .. الكوليـــرا لا تنتقل بالبكتريا ولكن تنتقل بالـــ Disposition .. »

لا تسأل من فضلك عن معنى هذا الـــ Disposition .. فقد كانت الموضة هى أن يجد كل عالم مصطلحًا كبيرًا موحيًا ويعلن أن هذا هو التفسير لكل شىء ..

أصلح كوخ من وضع المونوكل على عينه وقال فى غلظة :

ـ « د. (بيتنكوفر) .. كف عن هذا السخف وأعد لى الأنبوب .. لا أعرف ما هذا الـــ Disposition الذى تتكلم عنه وليس لدىّ مزاج رائق لسماع هذه النظريات الفلسفية .. أنا رجل علم .. »

قال بيتنكوفر وهو يفتح الأنبوب :

ـ « سوف أبرهن لك على أنك مخطئ بطريقة عملية .. »

ـ « أنت مجنون .. لا تفعل ! »

ـ « سوف أشرب الأنبوب كله أمام عينيك ولن يصيبنى شىء ! »

صاح كوخ فى جنون :

ـ « قلت لك إن كمية البكتريا هنا تكفى لقتل جيش ! »

ببساطة قرب الرجل الأنبوب من شفتيه وشرب كل محتوى الأنبوب .. وقال وهو يلعق شفته السفلى :

ـ « لقد ذقت ما هو أفضل .. لكن لا وقت للتلذذ فنحن نجرى تجربة علمية .. »

نظرت عبير للرجل غير مصدقة هذا الانتحار ونظرت لكوخ الذى بدا وقد خارت قواه تمامًا .. فقط راح يردد فى وهن :

ـ « غبى .. جاهل .. »

قال بيتنكوفر وهو يبتعد :

ـ « أرجو أن تضيف لمزارعك بعض السكر فى المرات القادمة .. أوف فيدرزين .. »

وما لم تعرفه عبير هو أن الرجل لم يمرض !.. لم يصب حتى بمغص .. وهذه من الألغاز الطبية العجيبة .. حاول الأطباء فيما بعد تفسير الأمر بأنه كان مصابًا بحموضة زائدة فى المعدة ، ومن المعروف أن بكتريا الكوليرا هشة جدًا بالنسبة للحموضة فلا تتحمل أى ارتفاع فيها ، ولهذا يعصرون الليمون على كل شىء يؤكل .. لكن هل هو تفسير كافٍ ؟

قال لها كوخ وهو يتحسس لحيته :

ـ « هنـــاك شيطان يطارد العلمـــاء يحـــاول أن يثبت أنهم مخطئـــون .. وهذه القصة نموذج على ذلك .. لكن هذا العمل

البطولى لن يغير من الحقيقة شيئًا .. النار تحرق حتى لو مد أحد المشعوذين يده فيها فلم تحترق .. »

ثم طهر يديه وتأبط ذراعها فى رفق بيد ترتجف من الشيخوخة ، ومشى مبتعدًا عن الخيام الرهيبة .. وسألها :

ـ « ماذا تنوين عمله الآن ؟ »

ـ « سوف أبحث عن ذلك الوباء الذى سألتك عنه .. هناك ذبابة معينة أشك فيها كثيرًا .. ثمة ما يجعلنى أشك فى أن العدوى جاءت من الهند ، وأن هذه الذبابة هى التى نقلت العدوى .. »

ـ « الحشرات لا تنقل الأمراض .. »

ـ « ليوبالد سميث برهن على العكس .. فى مومباى الآن ستجد (روس) يثبت أن البعوض ينقل الملاريا .. »

هز رأسه مفكرًا ثم قال :

ـ « يبدو أننى أشيخ فعلاً .. إننى أعيش الدقائق الأخيرة فى مسرحية حياتى قبل نزول الستار .. لست قادرًا على مساعدتك البتة لكنى أعرف من يستطيع .. »

تنهدت فى إرهاق .. هذا بحث مضنٍ جدًا وفى كل مرة يعطيها أحدهم خيطًا لا يقود إلا إلى طرف خيط آخر ..

كان طرف الخيط هو طبيب ألمانى لم يحتفظ لنا التاريخ باسمه ، ولم يسمع عنه سوى قراء فانتازيا .. إنه صديق كوخ د. (هوفمايشتر) وهو رجل ملتحٍ نحيل يبدو مريضًا هو نفسه ويعرق بلا توقف ، وهو هنا لا لملاحقة الكوليرا لكن لملاحقة مرض غريب آخر ...

قال لها وهو يبحث فى دفاتره :

ـ « هناك عشر حالات فى هــذه القرية .. حمى ورجفة .. احمرار فى الوجه .. غــدد لمفاوية منتفخة . بلغم أزرق .. قىء أزرق .. عرق غزير .. مغص شديد ... هل هــذه الأعراض تذكرك بشىء ؟ »

نظرت له فى لهفة وصاحت :

ـ « إنك تصف ما حدث بالضبط !! »

ـ « طريقة الانتقال مجهولة تمامًا بالنسبة لى .. جربت كل شىء .. لكن الداء ينتقل بسرعة كالبرق .. »

قالت فى حماسة :

ـ « لأن الذباب الصحراوى هو من ينقله .. أنا شبه متأكدة من ذلك .. »

هز رأسه غير مصدق وقال :

ـ « الحشرات لا تنقل الأمراض .. »

ـ « بل تنقلها وقد صار ذكر هذه الحقيقة مملاً فعلاً .. »

قال وهو يراجع أوراقه :

ـ « هناك من يصاب بالمرض لكن الأعراض لا تبدو عليه .. يظلـــون مستودعًا للعدوى يصيب الأصحاء .. على كل حال أنا أطلقت على هذا المرض الجديد اسم (حمى كلكتا) .. »

قالت فى حماسة :

ـ « سوف أساعدك .. أريد قدرًا كبيرًا من عينات هؤلاء المرضى .. كانت لــدىَّ عينـــات لكن (كـــوخ) و(باستير) استهلكاها .. فى نفس الوقت أريد عمل تجربة معينة .. »

* * *

احتاج الأمر إلى كثير من الترتيبات ودفع أجر للمتطوعين . وفى النهاية قامت (عبير) بتصميم كوخين من الأخشاب وبقايا المخلفات .. فى الكوخ الأول أحضرت مجموعة من عينات من أصيبوا بحمى كلكتا وملاءاتهم وأدواتهم .. تأكدت من أن الكوخ مغلق بعناية بالسلك ولا يمكن لذبابة أن تدخله ، ثم جعلت ثلاثة

متطوعين من الهنود يقيمون فيه ... برغم القذارة العامة للمكان الضيق فإن فقر هـــؤلاء القـــوم جعلهم يعتقـــدون أنهم فى نزهة أو فندق فاخر .. وقد وجهوا لها الكثير من عبارات الشكر :

ـ « شوكريان !! »

الكوخ الثانى تأكدت من أنه نظيف تمامًا ، لكن الذباب كان قادرًا على الدخول والخروج .. ووضعت فيه ثلاثة متطوعين آخرين ...

قال لها د. (هوفمايشتر) فى ذهول :

ـ « بروتوكول محكم فعلاً !.. عقليتك علمية دقيقة !.. هل هذا بسبب الفترة التى قضيتها مع كوخ العجوز ؟ »

لم تخبره بالمكان الذى تعلمت فيه هذا الأسلوب ، فهى من القلائل الذين حضروا تجربة ريد الرهيبة ، وقالت فى فخر :

ـ « أى شخص ذى تفكير منطقى سليم سيفكر بالطريقة ذاتها ! »

بعد أسبوع فتحت عبير الكوخ الأول فوجدت أن الهنود الثلاثة بخير حال .. فتحت الكوخ الثانى فوجدت الهنود الثلاثة على الأرض لا يكفون عن الصراخ والأنين وقد تورمت أعناقهم ..

اتجهت للجدار حيث وقفت ذبابتان شريرتا المنظر ، وبحذر شديد هوت عليهما بعنق زجاجة لتحبسهما بالداخل .. ثم سدت الزجاجة وثقبت سدادتها لتسمح بدخول الهواء ، وقالت فى مرح :

ـ « لدىَّ عينات من الوباء ولدىَّ الحشرة التى تنقل الوباء !.. »

قال د. (هوفمايشتر) فى تعاسة وهو يحك رأسه :

ـ « لم تحققى شيئًا بعد .. أنا بحثت مرارًا عن الميكروب فى هذه الإفرازات ولا يوجد أمل ..الشىء الذى يسبب هذا أصغر من البكتريا ألوف المرات .. »

ـ « لأنه فيروس ... أنتم لم تعرفوا هذا المفهوم بعد لكنى أعرف أنه فيروس .. »

ثم نظرت إلى أنبوب الاختبار حيث تعبث الحشرتان محاولتين الفرار ، وقالت فى تصميم :

ـ « أعرف إلى أين أذهب بعد هذا ... »

11 ـ مرحباً بكم فى المستوى الرابع ..

مرحبًا بكم فى مستوى الأمان الحيوى الرابع ..

مرحبًا بكم فى هذا المكان المخيف الذى يذكركم بأفلام الخيال العلمى ..

على الباب تجد هذه العلامة التى تذكرك برأس الشيطان وقرونه بشكل ما :



سوف تجدها فى كل مكان تقريبًا ، وهى علامة (الخطر الحيوى) العالمية .. أى أن الموت موجود هنا بكثرة وفى كل ركن ومع كل شهيق .

مرحبًا بكم فى السى دى سى CDC .. مراكز السيطرة على الأمراض ومنعها ..

* * *

تقع CDC فى أطلانطا بالولايات المتحدة ..

حاليًا يمكن القول إن الأوبئة فى العالم كله تمر عبر مصفاتين هما معهد باستير بفرنسا ومركز سى دى سى . لقد تم تأسيس هذا المركز عام 1942 عندما كانت الملاريا هى المشكلة الوحيدة والأهم والأعقد بالنسبة لأمريكا .. لقد كانت تحصد جنودهم حصدًا فى جزر الملايو ، أفضل وأكفأ مما يفعله اليابانيون .. كان هناك الكينين لكنه غير كاف ..

وهكذا كان عمل المركز فى بدايته يتلخص فى رش البيوت بالدى دى تى .

تمدد عمل المركز مع الوقت ليشمل الأمراض السرية والدرن فيما بعد ، وحاليًا يكافح مجموعة هائلة من الأمراض الجديدة والإرهاب البيولوجى . وحاليًا يملك المختبـــر الوحيد الذى يتيح مستوى الأمان الحيـــوى الرابع فى الولايات المتحـــدة ، كما أنه يملك نصف المخزون الوحيد الباقى على ظهر الأرض من الجدرى . النصف الآخر فى روسيا طبعًا .

باختصار يستطيع المركز أن يبدأ حربًا بيولوجية تفنى البشرية متى أراد .

للمركز عشرة فروع فى الولايات المتحدة بجانب المركز الرئيس فى أطلانطا ، وميزانيته ثمانية مليارات عام 2008 .

عبير الآن تجلس فى قـــاعة الانتظـــار .. معها حقيبة العينات وكل ما جمعته عن هذا الوباء الغريب .. أما عن كيف بلغت ولاية جورجيا قادمة من الهند ، فسؤال يدل على أنك مستجد على عوالم فانتازيا ..

دخلت الغرفة سكرتيرة حســناء تتقـــدم د. (ماكس فريدلر) المسئول عن الأوبئة فى العالم الثالث .. كان رجلاً ذا عوينات شفافة بلا إطار وله رأس بدأ الشعر يتساقط عن مقدمتها ، وشفتين رفيعتين توحيان بالعزم وشىء من القسوة ..

قال لعبير وهو يصافحها :

ـ « الوباء ينتشر بصورة لا تصدق فعلاً .. قرية كاملة قد أصيبت به .. هناك وفيات وقد بدأ البعض يعتقد كالعادة أننا نتكلم عن سلاح بيولوجى تسرب من مختبراتنا .. »

قالت عبير بابتسامة ذات معنى :

ـ « ألم يحدث هذا من قبل ؟ »

ابتسم ابتسامة قاسية وقال :

ـ « حدث فعلاً .. ولا أكتمك أننا قدمنا للعراق بعض الأسلحة البيولوجية أيام حكم صدام حسين ، فنحن لم ننكر لحظة أننا كما

نحمى نهدد !.. لكن دعينى أؤكد لك أننا لا نعرف أى شىء عن هذا الوباء الجديد ... »

ثم اتجه إلى جهاز مثبت للجدار يشبه الدكتافون ، وضغط زرًا أحمر وبدأ يتكلم بلهجة صارمة :

ـ « انتباه .. نعلن عن مستوى حيوى رابع ... مستوى حيوى رابع .. حمى كلكتا .. »

لم تفهم عبير معنى هذا ولا ما حدث ، ولا كيف انطلقت طائرات الجيش الأمريكى نحو تلك القرية البائسة التى يرقد فيها المرشد .. ولا كيف جرت استعدادات مخيفة فى كل أرجاء هذا المبنى العملاق .. أطباء يركضون وممرضات يسرعن ، وأجهزة إنذار تدق .. يبدو أن الجحيم قد انفتح مع ضغطة هذا الزر ..

قال د. (فريدلر) وهو يغلق مكبر الصوت :

ـ « سوف ننقلك فورًا إلى مستوى الأمان الرابع أنت وعيناتك .. فمن الوارد أن تكونى ملوثة بالعدوى ... »

قالت عبير :

ـ « صدقنى لست مصابة بالعدوى ولا أحملها .. قواعد اللعبة تحتم ألا أمرض بل أحتفظ بقواى لأننى أمل المصابين .. »

ـ « لن نجازف بشىء .. لا يمكنك أن تكون حذرًا أكثر مما يجب .. »

* * *

هناك درجات لخطورة الوباء وإجراءات الحجر الصحى والتطهير تتدرج من الرقم 1 حتى الرقم 4 ..

فى المستوى الرابع يصير المشهد أقرب إلى مشهد من فيلم (سلالة أندروميدا) ولا يمت للواقع بصلة ..

هنـــا أخطر الفيروســـات طـــرًا .. هنا المـــوت الذى لا يمكن التفاوض معه أو مهادنته . لا توجد أمصـــال ولا لقاحات وغالبًا لا يعرف الطب علاجًا بعد .

الإيدز ؟.. بالطبع لا .. الإيدز مرض مسالم بالنسبة لهذه الأمراض .. يمكنك أن تعيش مع مريض إيدز وتأكل معه ولا تصاب بالإيدز ، لكن من يجرؤ على الاقتراب من مريض (إيبولا) ؟

الأسماء هنا مرعبة على غرار (حمى الكونغو والقرم) و(لاسا) و(إيبولا) و(ماربورج) . يلبسون ثيابًا كثياب رواد الفضاء مزودة بنظام أكسجين خاص بها وتسمى ثياب (المواد الخطرة Hazmat) .

هكذا تجد عبير نفسها تمر عبر حمام ، ثم حمام بالمطهرات ، ثم مرحلة أخرى تعرضها للأشعة فوق البنفسجية .. كلما انتقلت من مرحلة انغلق باب أوتوماتيكى وراءها عليه تلك العلامة المرعبة .. لا يمكن أن ينفتح بابان فى الوقت ذاته. كاميرات مراقبة فى كل مكان ... أجهزة مسح إلكترونى .. تفريغ ضغط سالب لمنع انتشار العدوى المحمولة بالهواء ... أى أن الهواء – فى حالة حدوث تصدعات أو اختراقات – يدخل ولا يخرج ..

أخيرًا أدخلوها فى ممر بلاستيكى يشبه الممرات العجيبة التى رأتها فى فيلم (إى تى) ، وبالخروج من الممر تكتشف أنها تلبس البذلة المسماة (هازمات) كاملة وأن هناك قفازين فى يديها ..

إنها فى قدس الأقداس الآن .. المنطقة الساخنة Hot zone .. حيث يقف رجل لا ترى وجهه ، لكنها تقدر أنه د. (فريدلر) ... هناك غرفة مغلقة بإحكام ، وفيها منضدة عليها عينات من المرضى .. يتم التعامل مع هذه العينات عن طريق قفازين يدخل الطبيب يده من خلالهما وهو ينظر عبر النافذة السميكة ..

تكلمت فلم يسمع الرجل صوتها .. يبدو أن الصوت لا ينتقل هنا ..

فقط أخرج لوح كتابة وكتب عليه بخط كبير بقلم (ماركر) :

– « لا حركات مفاجئة هنا .. يجب أن أراك بوضوح وتريني بوضوح .. لا يجب أن نصطدم ببعض وإلا تمزقت بدلتانا .. »

ثم أخرج لفافة من الشريط اللاصق (سيلوتيب) وقطع قطعة منها ثم أشار لها أن تستدير ، وألصقها على كتفها. لم تفهم معنى هذا فكتب على اللوح :

– « كل من يبصر تمزقًا فى بدلة زميله عليه أن يلصق عليه قطعة من الشريط ... »

ثم راح ينظر عبر المجهر ..

تذكرت (عبير) باستير العظيم وهو يشفط لعاب الكلب مباشرة دون قناع ولا احتياطات من أى نوع وابتسمت .. لو أن باستير رأى هذا المشهد لأصابه الهلع. لكن هذا ما كان ليوجد من دون باستير وكوخ ولوفلر ورو وسواهم ..

وفى بداية الصف يقف الهولندى (لى فان هوك Leeuwenhoek) مخترع الميكروسكوب ، الذى بدأت معه المغامرة .. إنه موجود بقوة ..

هنا تناولت الشريط اللاصق وقطعت قطعة ثبتتها على مؤخرة الطبيب الأمريكى حيث وجدت تمزقًا .. التفت لها بنظرة امتنان ثم واصل عمله .

لقــد صــار من المؤكد أن ما يسبب حمى كلتنا فيروس .. فيروس غريب لم تعرفه البشرية من قبل ..

كان الرجل يعد عينات بالمجهر الإلكترونى ، والتقط عدة صور ، ثم اتخذ ما يلزم لتحليل التركيب الوراثى لهذا الكائن الجديد .. وكتب لها :

ـ « هيا بنا .. »

ثم اتجه لركن القاعة حيث يقف شىء كأنه بدلة معلقة فدس فيها ذراعيه وضغط ، وسرعان ما اختفى .. لحقت به عبير وفعلت كما فعل ، فاكتشفت أنها تغوص فى ممر آخر .. وسرعان ما كانت تعبر ذلك النفق البلاستيكى الطويل لتخرج من الجانب الآخر فتنهمر فوقها المياه ، وانفتح القفل الأتوماتيكى لتعبر إلى حيث حمام المطهرات الشهير .. ثم جاء دور الأشعة فوق البنفسجية ..

استغرق الأمر نصف ساعة حتى وجدت نفسها أمام المصعد ، فقال لها حارس مدجج بالسلاح يلبس كرواد الفضاء :

ـ « سوف تغادرين المستوى الرابع .. يمكنك الانتظــار فى المبنى الإدارى .. »

12 ـ مابع ..

بعد ساعتين من قراءة المجلات واحتساء القهوة الأمريكية الكريهة ، دخل عليها د. (فريدلر) حاملاً مجموعة أوراق خرجت من الطابعة فورًا ، وألقاها أمامها فنظرت لها فى عدم فهم .. رأت صفحات كاملة امتلأت بهذه العلامات :

CTNNNNNNNN NNNNNNNNNN NNNNNNNNNN NNNNNNNNNN NNNNNNNNNN

GGGGCTCTTG CTGAATTCTG TGGTAAGTAA CCAACCCGTG TCTGG--ACC

GGGGCTCTTG CTGAATTCTG TGGTAAGTAA CCAGCCAGTG TCTGG--ACC

GGGGCCCTCA CTGAGATGTG TGGTGAGTAA CTCGCCTCTA TCCTG--TGC

GGGGCCCTCA CTGAGATGTG TGGTGAGTAA CTCGCCTCTA TCCTG--TGC

بدت لها كأنها علامات شفرة ، ونظرت له متسائلة فقال وهو يجلس إلى مكتبه :

ـ « فعلاً هى شفرة .. هـذا هو ترتيب القواعد فى الفيروس .. الفيروس الذى قررنا أن نسميه (كلكتا) .. لقد قام الكمبيوتر بتحليله وقمنا بتكبير جزء من حمضه النووى باستعمال تفاعل سلسلة البوليمريز PCR ، وعرفنا حجمه وخواصه وتركيبه الجزيئى .. وعلى الأرجح سوف نتمكن خلال شهر من تخليق لقاح ضده ، وبالتالى سوف يخرج من المستوى الرابع .. »

قالت فى دهشة :

ـ « ما شاء الله !.. كل هذا فى ساعتين ؟ »

ـ « ماذا تتوقعيـن ؟.. نحـن فى عصر البيولوجيا الجزيئية والهندسة الوراثية .. صارت لدينا سياسة محددة لعزل أى ميكروب وتحليله خلال ساعات .. لم نعد نضيع وقتًا .. »

هنا سألت السؤال الذى يؤرقها :

ـ « هل نتمكن من إنقاذ هؤلاء البؤساء ؟ »

ـ « على الأرجح سوف نستطيع ذلك ... لقد قمنا بنقلهم هنا وسوف نبدأ تجربة عقار الإنترفيرون وعقار الريبافيرين .. بل نحن بدأنا فعلاً ... لكن هناك خبرًا قد يهمك .. »

نظرت له وتوقعت أن يقول لها الخبر الذى تخشاه أكثر من سواه ..

الحقيقة أنها كانت قلقة ، لكن ليس علىَ مصيرها .. أدهشها هذا .. إنها خائفة على المرشد برغم أنه لا وجود له فعلاً .. إنه وليد خيالها . المفترض أنْ تخاف على مصيرها فقط ، حيث يمكن بسهولة أن تجد نفسها فى فانتازيا للأبد . ليس هذا شيئًا كريهًا لكن جسدها فى عالم الواقع سيكون فى غيبوبة دائمة..

فتح د. فريدلر علبة كولا .. فوش ش ش ! ثم قال :

ـ « الخبر الذى يهمك هو أن الذباب لا يحوى شيئًا من الفيروس .. »

نظرت له مندهشة وقالت :

ـ « إذن كيف ينتقل ؟.. لابد من طريقة ما .. ربما التنفس ؟.. هل بالإفرازات ؟ »

ـ « نحن درسنا معظم هذه الاحتمالات .. وما زلنا لا نعرف يقينًا .. تعرفين أننا نفتش عن الحمض النووى للفيروس فى كل شىء .. »

ساد الصمت لفترة ، وراحت ترمق وجهه الصارم وهو يمتص الكولا من العلبة كأنه فى حرب .. ثم قالت :

ـ « أتساءل عما كان كوخ سيقول ويفعل لو رأى ما تفعلون هنا .. »

ــ « كان سيشعر بالحيرة قليــلاً ، ثم يفهــم قواعد اللعبة ويتفوق على الآخرين .. إن العقل العلمى البارع هو العقل العلمى البارع .. لا شك فى أنه سريع التعلم .. »

قالت باسمة :

ــ « أرجو ألا يوحى لكم الفيروس الجديد بسلاح بيولوجى .. »

ــ « هذه مسئولية الجيش .. فى وضعه الحالى هو لا يصلح لأنه قابل للعلاج .. ربما لو أجرينا تعديلاً وراثيًا بسيطًا لأمكن أن ...... »

والتمعت عيناه كأنما يزن الفكرة جيدًا .. يبدو أنها ستروق له فى النهاية ..

* * *

الآن صار بوسع المرشد أن يرقد فى فراش مستشفى عادى بدلاً من الغرفة المحصنة التى كان ينام فيها محاطًا بممرضات يلبسن كرواد الفضاء ..

كان الإنترفيرون قد أعطى نتائج ممتازة ، وعلى بعد خطوات كانت الطفلة الجميلة التى أصيبت بالعدوى تلهو بدميتها عندما دخلت (عبير) ..

قال لها ضاحكًا :

ــ « للمرة الأولى ترينتى بالمنامة .. أشعر كأننى عارٍ تمامًا .. »

ــ « للمرة الأولى أرى فيك لمسة من الآدمية .. هذا غريب .. »

قال وهو يبحث جوار الفراش عن شىء ما .. فى النهاية وجده .. إنه القلم الجاف إياه ..

ــ « هل راقت لك المغامرة ؟ »

ــ « الكثير من القرف .. أشعر بأننى لن آكل بشهية لفترة طويلة ... برغم هذا سوف أذكر تلك الأيام طويلاً .. أحببت باستير واحترمت كوخ وأعجبت بريد .. إنهم أبطال جديرون بالملاحم .. »

ثم حكت ذقنها مفكرة وقالت :

ــ « ما زلت لا أفهم مصدر العدوى التى أصابتك .. لقد كلفنى هذا رحلة إلى الهند ولم أفهم بعد .. لم يكن الذباب هو السبب .. »

حاول النهوض من الفراش فتأوه .. كانت ساقاه ترتجفان لكنه تحامل .. بحث عن الخف فلم يجده ، هنا تطوعت عبير وجلبته له من تحت الفراش ودسته فى رجله. نهض مترنحًا وقال وهو يستند على كتفها :

ــ « أريد بدلتى السوداء .. لا أستطيع العمل من دونها .. »

ـ « سأجدها لك حالاً .. »

ـ « كنت تسألين عن مصدر العدوى .. سوف يعرفونها قريبًا ولسوف يكون كشفًا علميًّا مذهلاً لكننا لن نعرف لأننا لن نكون هنا .. »

وجدت بدلته السوداء ورابطة العنق والقميص فى الخزانة ، فوضعتها على الفراش ثم خرجت للشرفة ترمق الحديقة الممتدة أمامها وسماء جورجيا . وصاحت تسأله :

ـ « إلى أين يا مرشد ؟ »

جاء صوته من الداخل :

ـ « وكيف لى أن أعرف ؟.. أنت ستختارين وأنا أنفذ .. »

قالت وهى تتثاءب :

ـ « أريد شيئًا من الخيال .. الكثير منه .. »

* * *

فى القصة القادمة تدخل عبير عوالم ألف ليلة وليلة لتفهم شيئًا عن هذا العــالم الساحر ، الذى أضاف لعالمنا الكثير من الكتاب والحالمين .

تمت بحمد الله

فانتازيا

مغامرات ممتعة فى أرض الخيال

رقم الإيداع : ١٤١٤٥
٩٧٧ - ٢٣٨ - ٣٣٧ - ٩

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

فانتازيا مغامرات ممتعة من أرض الخيال



د. أحمد خالد توفيق

الصيّادون

ليست الحرب دوما حرب جيوش ، ورصاص ، وقنابل ، ونيران ... هناك حرب أفكار .. حرب تقدم علمى ، ونظريات ، ومؤتمرات ..

هكذا وجدت عبير نفسها وسط نيران المعركة العلمية المخيفة بين فرنسا وألمانيا فى البداية ، ثم صارت حربًا عالمية تدخلت فيها كل أقطار الأرض .

إن الصيادين لم تكن مهمتهم أن يمنحوا العالم المزيد من القتلى والمذابح ؛ بل كانت مهمتهم أن يجعلوا العالم مكانا أكثر أمنا ..

تعال وشاهد كوخ فى عيادته الصغيرة ، وباستير فى مختبره ، ولوفلر ، ورو ، ويرسين ، وهانسن ، وجورين ، وريد ... وسواهم ، وحاول أن تقترب من اللغز معهم ..

العدد القادم

ليالٍ عربية



الثمن فى مصر 400

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

